

الدروس الحكمية

للناشئة الاسلامية

﴿ تأليف ﴾

« رفيق بك العظم »

﴿ طبعة أولى ﴾

طبع بمطبعة المؤيد والآداب بمصر سنة ١٣١٧

بسم

الحمد لله الذى جعل الانسان على نفسه بصيرة . وفضله
على سائر خلقه بان منحه من العقل هدى ونوراً . وأورثه
الارض ليكون خليفة فيها . ووهبه من أسباب السعادة نعماً
لا يحصيها . وأرسل رسله بالبينات والهدى لأوضح محجة
(لئلا يكون للناس على الله حجة) وله سبحانه الحجة البالغة
على الناس أجمعين . فانه القائل (وفي الارض آيات للموقنين
وفى أنفسكم أفلا تبصرون) وصلى الله على سيدنا محمد خاتم
النبيين . المنزل عليه (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم
يعلمون) وعلى آله الطاهرين وأصحابه البررة الصادقين .
ومن قال بقولهم ودعا بدعوتهم من المخلصين (ومن أحسن
قولا ممن دعا الي الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين)
أما بعد فان من تصفح الجرائد الاسلامية في هذه الايام يرى
فيها من آثار التألم الصادر عن فريق من نبهاء المسلمين فى

الشرق والغرب قاموا فى وسط المجموع الاسلامي يدعونه الى الرشد بزعجات النذر ومؤثرات البيان ما يدل على تنبه الشعور عند بعض المسلمين بالخطر المحيق بهذه الامة وتحسسهم على باب تخرج منه من هاوية السقوط التي تتخبط فيها من عدة أجيال لملل وأسباب أخذ بتتبعها واستقصاء البحث فيها أولئك الكتاب فشخصوا الداء ووصفوا الدواء ولكن على اختلاف فى القول وتعدد فى مذاهب البيان ينتهى كله الى نتيجة واحدة وهي وجوب الاصلاح

وكنت كتبت مع من كتب في تشخيص الداء ووصف الدواء مقالات منها ما نشر فى جريدة المؤيد الخطيرة ومنها ما نشر في جريدة « المنار » الاسلامية الغراء قلت فى بعضها فى تشخيص الداء ما نصه

وقد تقدمت الاشارة الي القاء تبعة التقهقر على كواهل أولياء الامر فى الاسلام وذلك لما ادخلوه من الضعف على نفوس الكافة بتربيتهم الشعوب على مبدأ يخالف ما تأسس عليه الاسلام وقامت على دعائمه الدول الاسلامية الاولي توصلا لوقوف تيار العلم اليقين عند حد لا يتجاوز الضروري

من أمر الحياة حتى تأصل فى النفوس داء الضعف وخضعت ارادة الشعوب الاسلامية لسلطان السلطة القاهرة التي استفادت من ذلك بسط النفوذ المطلق على العقول والافكار أجيالا متطاولة انتهت بانحلال العزائم وخمود الافكار لغاية أضلت الحيلة عن ذوى الشعور الحيّ في هذا العصر الذين يبحثون عن دواء يشفي داء التقهقر الملم بالمسلمين ولو رجعوا بالبحث الي قرون المجد الاسلامي الاولي لوجدوا لذلك دواء أهم أجزائه انطلاق العقول من قيد الحجر المضر وذهابها في مناحي العلوم كل مذهب تتناول به معرفة الحقوق والواجبات العلمية والاجتماعية بما تمكن فيها من أصول التربية على مبادئ الفضيلة التي هي أساس العمل فى الشريعة الاسلامية ومنبعث حياة المجد الاسلامي الذي قام على دعائم العمل بمعنى قوله تعالي (ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط)

وقلت فى بعضها ان حياة الاسلام انما كانت بالتكافل العامّ علي قيام شرائعه وسننه وقد ضعف الاسلام لما ضعف التكافل بل زال فضعف بعده المسلمون ولا يزالون كذلك

ما داموا غافلين عن مصالحهم الاجتماعية التي لا قيام لهما عند كل أمة الا بالتكافل العام وقد رأيت ان الدواء لداء المسلمين هذا انما هو محصور فى التربية على اصول الفضائل الاسلامية التى أهمها استقلال العقل والارادة وفى توحيد الكلمة على مبادئ الشريعة التى تضم ما تفرق من شمل المسلمين وتحيي ما اندثر من معالم العلم اليقين . وانما اخترت فى الحصول على الدواء لداء التقهقر طريق الدين لان به قام المجد الاسلامي ومدنيته وعليه تأسست دعائم الدول العظيمة في الاسلام وتبسطت الامة الاسلامية في مناحي العمران فضعفها وقوتها يكونان بنسبة ضعف وقوة الدين بخلاف الامم الاخري التي قامت من جهة غير جهة الدين أومخالفة له فان ضعفهن وقوتهن بنسبة ضعف وقوة الجهة التى قمن بها وتأسست مدنيتهن عليها (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) لا سيما وان الشريعة الاسلامية جاءت باصول الفضائل المناط بها ترقي المجتمع الاسلامى وأخصها مخاطبة العقل وحثه على العمل والحرية والعلم وغير ذلك وهى الاصول التى لم يتيسر لغير المسلمين الحصول عليها الا من طريق القوة فى مقاومة

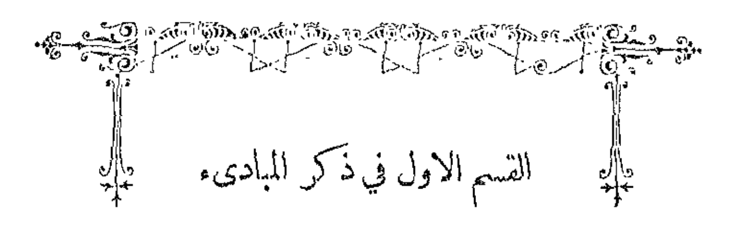
العوارض التي تحول دون الوصول الى هذه الاصول

ولا بد في تربية الافكار الآن على مبادئ الشريعة من وضع كتب جديدة تبين مزايا الدين الاسلامي للناشئة الاسلامية من جهة ما يقوّم أود النفوس الناشئ عن خلط الاعتقاد الصحيح بالبدع التي أضعفت النفوس من جهة وأزاغت ضمائر بعض الناشئة عن حقيقة الاسلام من جهة أخرى لترشد تلك الكتب النشء الاسلامى الى الدين من طريق العلم والعقل والى العمل من طريق الدين فتزرع في نفوسهم حب العمل والعلم وحب الدين والوطن وحب الثبات وغير ذلك من الكمالات النفسية والواجبات الانسانية التي نبه عليها القرآن وجاء بها الاسلام .

وهذا ما قصدته من وضع هذا الكتاب بعد ان ساورني هذا الفكر مدة كنت أقدم في غضونها قدما وأؤخر أخرى لعلمي بعجزي عن ادراك بعض ما اشتمل عليه هذا الدين القيم والقرآن الكريم من معجزات الحكم التى هي مناط السعادة في الدارين على ان ما لا يدرك كله لا يترك قله .

لهذا استخرت الله وبدأت بان ألقي دروسا من هذا القبيل على

طلبة السنة الرابعة من المدرسة العثمانية بمصر لما أنيط بي ادارة شؤونها منـذ أمد قريب على أمل ان أتم هذه الدروس وأضعها في كتاب مخصوص ينتفع به سائر أبناء الاخوّة الاسلامية ثم رأيت انّ قرب انفضاض طلبة السنة الرابعة واشتغالهم بالمذاكرات العلمية استعدادا للامتحان السنوي يذهب بثمرات ما ألقيه عليهم فقطعت التدريس وباشرت باكمال الدروس وتأليفها في هذا الكتاب وقسمته الي ثلاثة أقسام في الاجتماع . مباديه وروابطه ومقوّماته . ليكون أشبه بمرقاة يرى فيها كيفية تدرج الانسان في مراقي الحضارة والعمران بما وهبه الله من قوة العقل والارادة وأرشده اليه من طرق السعادة وجعلت تحت كل قسم منها دروسا مستمدا فيها مادة البيان من آي القرآن . فاذا صادف على هذا قبولا عند العقلاء فذلك هو المقصود والا فلا أقل من أن يكون نموذجا لمريدي الاصلاح الحقيقي في الامة الاسلامية وقد سميته (الدروس الحكمية للناشئة الاسلامية)وأنا أستغفر الله من كل خطأ يقع فيه وأرجوه العفو والمغفرة لما يعلمه سبحانه من حسن قصدي واخلاص ضميري في كل ما يخطه قلمي لخدمة الاسلام والمسلمين والله ولي المتقين



القسم الاول في ذكر المبادىء

﴿ الدرس الاول ﴾

(وخلق الانسان ضعيفا)

هذه فاتحة دروس أفتتحها لكم أيها الاخوان النجباء وأمليها عليكم شذرات تكون كسلسلة من حكم علها تنفعكم فى حاضر أوقاتكم ومستقبل حياتكم على شرط أن تقبلوا بكليتكم عليّ وتكونوا كلكم آذانا مصغية اليّ فانى منذ مدة أحاول أن اقف أمامكم موقف الواعظ المذكر الذى انما يهمه تذكير أبناء ملته والناشئين من بني وطنه بان القليل من العمل خير من كثير من العلم بلا عمل . وان مناط الحياة الطيبة التربية على مبدإ العلم لان الانسان انما خلق ليعمل فيحيا لا ليهمل فيموت وفى قوله تعالي (وخلق الانسان ضعيفا) ما يشير الي شيء من هذا المعنى وربما تقولون وأى معنى فى هذه الآية يؤيد ما ذهبت اليه ونحن نرى ان هذا البسيط الارضي

المملوء بمجالي العمران المتسع البالغ منتهى الفخامة والاعجاب بمصنوعات الانسان شاهد عدل على مبلغ قوة الانسان وقدرته في ترقية شؤون العمران فالجواب عن ذلك بسيط جدا يظهر لكم من قولي فيما تقدم ان الانسان خلق ليعمل فيحيا لا ليهمل فيموت أي أنه ضعيف باعتبار النشأة الاولى فاذا أهمل أو أهمل استمر على ضعفه فمات واذا تربى وعلم نشط فعمل فحيي واليكم البيان

انظروا يارعاكم الله الي مبدإ الانسان في حال نشأته ودور طفوليته ترونه أضعف من أنواع الحيوان قاصرا عاجزا جزوعا هاوعا يترصده الحيوان المفترس بمخلب وناب . وتكتنفه الطبيعة بمصائب وأوصاب . فيدب محاطا بمكاره الطبيعة الخارجية من أمراض قتالة وعوارض مغتالة ثم يشب فيقع في قبضة مكاره النفس الداخلية فيكون في الحالين أي منذ يدب الي ان يشب عرضة للمهالك بين عاملين قويين أسهلهما عليه أقتلهما له وليس هذا حال الانسان باعتبار الطفولية فقط بل هو حاله أيضا باعتبار أول وجود الانسان على الارض اذ أن الله سبحانه وتعالى لما خلق الانسان

خلقه سليم الفطرة ساذجا ليس عنده من القوّة الطبيعية والالهامات الفطرية ما عند سائر الحيوان ليدفع بها الآفات ويصد المهجمات اللهم الاّ مسحة من العقل الفطرى كانت لا تغني عنه من الحياة شيأ ولكن الله سبحانه وتعالي أودع في خزائن ذلك العقل أسراراً كامنة فيه كمون النار في الزناد فكما أن هذه لا تظهر الا بالقدح كذلك تلك الاسرار — وهي مدارك العقل الفائقة — لا تظهر الا بالاحتكاك بالمقاصد الحيوية التي لا تتناهى في جانب العقل البشرى .
ومثاله ان الانسان اذا جاع ثم اكل شيأ من نبات الارض فشبع لا يقتصر في سائر أيام حياته على ذلك النبات بل يبحث عن غيره ويتطلب سواه مما يكون أعظم تغذية وألذ طعماً وهكذا الحال في سائر ما يحتاج اليه الانسان ولهذا السبب امتاز الانسان عن جميع الحيوان ومن ثم كان بدء صعوده من حضيض البهيمية الي أوج البشرية بالطرق التدريجية والالهامات العقلية التى تترقى بترقى الحاجة وتنمو بنمو وسائل التربية والتعليم

﴿ الدرس الثانى ﴾

﴿ الانسان عاقل ﴾

(انا هديناه السبيل)

علمتم مما تقرر فى الدرس الماضي ان الانسان في دوره الاول كان أضعف أنواع الحيوان وماذلك الالأن الله سبحانه وتعالى أودع فى كل حيوان سواه الهاماً خاصاوادراكاً محدوداً يسيرانه فى طريق الحياة بدافع فطرى يعيش به عيشة بهيمية غير قابلة للتغير وألبسه من القوى الظاهرة لباسا لا يحتاج معه لاستعمال سلاح آخر لدفع آفات الطبيعة وهجمات العدوّ وأما الانسان فليس كذلك بل هو ذو قوي عقلية كامنة فيه كما تقدم وقابلة للزيادة والنقص أو الظهور والاختفاء ويحتاج لاستعمالها في أمر المعاش وتدبير وسائل الحياة التى لا تصدر عنه الا بعدالروية والتفكر فيما يدفع عنه الشقاء في الحياتين ويسهل له طريق السعادة للدارين فاذا استعمل تلك القوى مع الروية والتفكر نجا وصلح والاهلك واليهوردت الاشارة فى قوله تعالى (انا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإما كفورا)

لهذا كان الانسان ضعيفاً بالنسبة للحيوان مالم يعمل بما رزقه
الله من قوي العقل لآخرته ويشتغل فى تدبير المعيشة لدنياه
وما دام ذلك كذلك فلا ريب أن الانسان يحتاج فى تدبير
المعيشة الى وسائط كثيرة أهمها التعاون والاجتماع ونخال أن
أول شعور تنبه في هذا النوع هو الشعور بعجز كل انسان
بمفرده عن مجاراة الحيوان في طرق المعيشة الفطرية واحتياجه
الي مساعدة من عداه من بني النوع في تدبير شؤون الحياة
البشرية فكان ذلك من بواعث انضمامه في أول حلقة من
حلقات الاجتماع أو جمعية من جمعيات البشر التي كانت تدبر
أصول معيشتها على أبسط صورة يمكن أن يتصورها العقل لمثل
الجمعية الاولي للانسان ومن ثم كان مبدأ التآلف والاتحاد من
أهم المبادئ التي تأسست على دعامتها سعادة البشر الدنيوية
وحياتهم القومية كما سترون ذلك مفصلاً فيما يلي من الدروس
ان شاء الله

﴿ الدرس الثالث ﴾

﴿ الانسان مدنى ﴾

(علم الانسان مالم يعلم)

بعد ان كان الانسان يسكن الغابات الكثيفة ويأوي الي ظل الاشجار الغضة ويأكل من نبات الارض ويهيم من الحيرة في كل واد ثم دخل كما قدمنا فى أول طور من أطوار المدنية وهو الاجتماع أخذ يبني لنفسه الأكواخ الحقيرة وينحت فى الجبال بيوتا — ومنها الكهوف الصناعية التي ترى في كثير من الجبال — اتقاء عوادي الطبيعة ودفعاً لمخاطر الوحدة ثم ما زال يتسع أمامه مجال الفكر وتتشعب طرق المقاصد بتشعب طرق المعيشة حتي تولدت فيه قوة الاختراع وقوة الحرص والطمع فنماعنده حب التغالى بمظاهر الاجتماع والتغالب في ميدان المناظرة الدنيوية فاحتاج للاعتصام بقوة الاجتماع فى المدن طلباً لرفاه العيش وهرباً من عناء البداوة فخطط المدن وابتنى المعاقل والحصون ومصر الامصار وشيد

فيها شاهقات القصور وزاهيات المنازل والدور وكان فى غضون ذلك يجول بفكره فى مناحي الطبيعة باحثا عما أودع الله فيها من الاسرار وأوجد من المنافع في المواليد الثلاث ليسخر منها لمصلحته ما شاء فيما شاء ومن نعم الله سبحانه وتعالي ورأفته بهذا النوع الانساني أن جعل له من العقل سلطانا اذا أطلقه من وثاق الاوهام تناول به اسرار الطبيعة من كبد السماء ويخرج بها من اعماق الارض بلا حرج عليه ولا حجر لينتفع بها في الحياة الدنيا ويتوصل بها لتعظيم الصانع جلّ وعلا فينال بذلك سعادة الآخرة والأولي والى هذا وردت الاشارة بقوله تعالي فى القرآن الكريم (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون • الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون)

وانما خوطب الناس بهذا بعد ترقي العقل البشري الي مقام العلم الداعى للتكليف الموجب للتبصر في مكنونات الارض والسماء فسبحان من أجزل للانسان بدائع النعم ومنّ عليه بالعلم فقال تعالي (علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم)

﴿ الدرس الرابع ﴾

﴿ الانسان الكامل ﴾

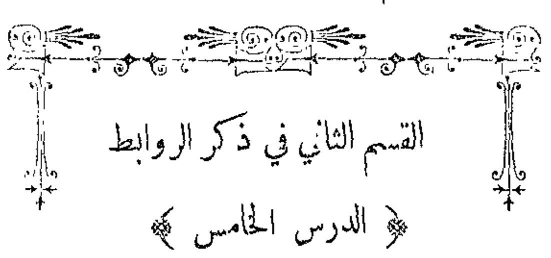
(بل الانسان على نفسه بصيرة)

هكذا كان حال الانسان وكذلك خرج من مصافّ بقية الحيوان وصعد بالتدريج من وهاد البهيمية الى أوج الحضارة والمدنية ولا يزال كذلك ما دام دائباً في تتبع اسرار الطبيعة مشتغلا في اكتشاف كنوزها التي أودعها الله فيها ذخيرة خيرة للانسان يتناولها بقوة العقل ويصل اليها بالمثابرة على العمل فيزرع ويستثمر ويعمر ويستعمر ويخترع ويبتدع ويتفيأ ظلال العمران ويستمدّ مادة الحياة الطيبة مع توالي الازمان من خلال المتاعب والمشاق التي يتكبدها في استجلاء الحقائق واطلاق الفكر في أطراف الوجود يتناول به من اسراره قوة تدرأ عنه غوائل الضعف الطبيعي الذى فطر عليه وتدفع طواريء الطبيعة وأخطارها التي تكتنفه وقد جد الانسان وراء هذه الغاية فوصل وفعل في هذا الوجود من آثار العقل ما فعل مما هو مشاهد بالعيان في كل زمان ومكان . ولكن

بماذا وصل الى ذلك ؟ هل بمجرد كونه انسانا عاقلا ضعيفاً قويا لا . بل توصل الي ذلك تدريجا باعمال الفكر والاسترشاد الي طرق السعادة بنور العلم الذي استمده من الشرائع الالهيـة واهتـدي به الي تطهير النفس البشرية من أدران البهيمية فاقام له ذلك العلم من نفسه على نفسه حسيباً يهديه نوره وأحله من هذا الوجود فى مكان كان فيه كما وصفه الله تعالي « بل الانسان على نفسه بصيرة »

ومن ثم تكوّن منه الجماعات العظيمة شعوباً وقبائل شيدت أسس الممالك وأقامت الحكومات ورفعت دعائم الدول . لهـذا كان الدين ضروريا للاجتماع ملازما للبشر فى سائر أطوار الحضارة التي لا تقوم الا به ومنه تستمد الروابط والمقوّمات التي هى من لوازم الاجتماع المدنى وضروريات الترقي البشرى كالملك والعـدل والحرية وطاعـة الله وحب الناس وحب الوطن وحسن المعاملة والاعتماد على النفس والجد فى العمل وغير ذلك من الروابط والمقوّمات التي هى غرضنا من هذه الدروس وسنفصلها لكم باباً باباً تفصيلا تعلمون منـه ما يلزم لترقى الشـعوب ويصاحب الحضارة

والعمران مع توالى الازمان ؛ ونبدأ من ذلك بذكر الروابط وأولها الدين لانه أساس الخير المبني على المصلحة العامة . ونسأل الله سبحانه وتعالي أن يسدد قولنا ويثبت في مواطن الحق قدمنا انه أكرم مسؤل



القسم الثاني في ذكر الروابط

﴿ الدرس الخامس ﴾

﴿ حاجة البشر الى الدين ﴾

﴿ ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب ﴾
(والميزان ليقوم الناس بالقسط)

اعلموا ان حاجة البشر الى الدين كحاجة الجسم الى الغذاء فكما ان الغذاء حياة الجسم وقوامه فكذلك الدين حياة للنفس لا تطيب الا به . وقد أثبت التاريخ ودلت الآثار على ان الدين مربي الانسان ومرشد الامم الى طرق المدنية منذ تكونت جمعيات البشر كما تقدم ذكره بدليل ملازمة الأديان للبشر منذ عرف التاريخ الي الآن حتي اننا لا نري الآن أمة على وجه

الارض الا ولها دين معروف وشريعة خاصة بها ولو وضعية أى من وضع البشر ومستنبطات العقول لم ذلك ؟ لان الله سبحانه وتعالى أول مافطر الانسان على حب المصلحة ومعرفة الخير من الشر انما فطره بواسطة الاديان السماوية التى كانت تهبط من جانب الحق تعالي على الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام وهؤلاء يبلغونها الناس ويدعونهم بها الى سبيل الرشد وطرق السعادة البشرية ليهتدوا بها الى المصالح التى تقوم بها حياتهم ويقوّم معوجّ عملهم وينتظم في الحياة الدنيا شأنهم ويظهر جوهر كمالهم الذى يهيئهم للترقى في سلم المدنية والتوصل الى السعادة الابدية والى هذا وردت الاشارة في القرآن الكريم بقوله تعالى

(ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) وقد بلغت هذه الآية غاية الغايات في الدلالة على رعاية الشرائع الالهية لمصالح البشر الروحانية والجثمانية وما كلف به الرسل من ذلك في اقامة ما اعوجّ من أعمال الانسان بميزان الشرع وارجاعهم الى الكتاب بالبينات ليقوموا بالقسط

أى لتمتثل سائر أعمالهم البدنية والنفسية ان لم يتيسر ذلك بالبينات وحكم الكتاب فبالزجر بالقوة وهي الحديد

لهذا كان أساس التربية البشرية هو الدين بدليل ما يشاهد فى حالة الاقوام الذين لم يتمتعوا ولو بقليل من أنوار الاديان الالهية من التقهقر فى مضمار المدنية والتوغل في مهامه الاخلاق الهمجية كسكان أواسط افريقيا الآن

وما قلناه من أنا لا نرى أمة على وجه الارض الآن الا ولها دين معروف ولو وضعيا برهان ظاهر على ان الانسان نشأ وتربى عقلا وفطرة بواسطة الأديان الالهية وانما احتاج بعض الشعوب الى الرجوع للوضع العقلي لما أهملوا أمر الدين وفقدت منهم أصول الشرائع الالهية ثم رأوا أن لا حياة الا بالدين ولا اجتماع الا على كلمته فاضطروا الى الوضع ولو وضعاً فاسداً ممزوجا بشيء من آثار الدين الصحيح الذى علق بأفكارهم أو اختلط بعوائدهم شيء منه ولله فى خلقه شؤون



﴿ الدرس السادس ﴾

﴿ جامعة الدين ﴾

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾

سبحان الله ما أعظم منته، وأعدل عمله. افترقت الشعوب فجمعها. وتغالبت الأنفس فهذبها. وتباينت المقاصد فوحدها وافترقت القلوب فألف بينها فانضمت الأقوام الي ما شرع من شرائع ارتبطت بها مصالح الامم واتحدت كلمة الشعوب فذللوا المصاعب ومدوا ظلال العمران وشيدوا الممالك وبالجملة وضحت لهم طرق السعادة فسلكوها وتوصلوا الي نعيم الحياة فتمتعوا به بنسبة ما شرع لكل أمة من شرع وافق حالة ترقيها وناسب مقتضى زمانها (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)

عناية من الله ما وفاها الامم حقها ولم قصروا عن واجب شكرها فدالت دولهم وانطفأ نورهم حين زاغت أبصارهم عن الحق وافترقوا شيعا في الدين اندفعت مع الاهواء اندفاع الغريق مع تيار الماء فانحلت عراهم وافترق مجتمعهم فانقلبوا

خاسرين ذلك بانهم كفروا بأنعم الله (فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون)

ماكان الله ليأخذ قوما بجريرة آخرين و (لئلا يكون للناس على الله حجة) مازال رحمة منه بالامم يرسل رسله بالبينات وينزل عليهم الشرائع بما يوافق الشؤون والمناسبات الطبيعية عند كل امة وفي كل زمان حتي حال حال وجاءزمان استعد فيه الانسان للكمال وآذنت ارادة الله تعالي بمخاطبة العقل وارشاده للسعادة التامة بالعلم اليقين فارسل نبينا محمدا صلي الله عليه وسلم وانزل عليه قرآنا يكاف المؤمنين معرفة أحكامه لطريق العلم فقال تعالى فيه (كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون) وقرر فيما قرر من أسباب السعادة مبادئ الاخاء الاسلامي تحت جامعة الدين فقال تعالي فيه (انما المؤمنون اخوة) وقال تعالي (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) ثم لما كان من شرط الاخاء الصحيح في جامعة الايمان اتحاد سائر بنيه للذب عن شرائعه والانتصار له بخروج المؤمن عن نفسه وسائر مايملك فى سبيل نصرة الحق والايمان فقد قال الله تعالي في هذا (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم

وأموالهم بان لهم الجنة)

بهذه الجامعة العظمى والرابطة المثلى تألفت قلوب الأمم المتنافرة وتضافرت قوى الشعوب المتفرقة فاندفع الاسلام في أطراف البسيط الارضي يدوخ أهله الممالك وينشرون الدين واللغة والمدنية ويبسطون نور العلم والتربية والتهذيب كل ذلك فعلوه في أقل من قرن بماذا ؟ بجامعة الدين ورابطة الحق اليقين

﴿ الدرس السابع ﴾

(معرفة الدين واجبة)

﴿ قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ﴾

اذا كان الدين ضروريا لازما للاجتماع فمعرفة الدين أيضاً لازمة لكل فرد من أفراد أهله بلا استثناء ولا يكفي فى هذه المعرفة كون المسلم مثلا يعرف الاركان الخمسة للاسلام بل يلزمه ان يكون على بصيرة من دينه وعلم ولو اجماليا [1] بشرائعه وسياسته فاذا سمع قارئا يقرأ أو قرأ هو

(١) نريد بهذا العلم الاجمالى علم الصحابة لا العلم الاجمالى المصطلح عليه عند الاصوليين

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم) يتدبر معني هذه الآية لقوله تعالي «كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب» ويكون على علم ولو اجماليا من فوائد هذه الطاعة وانه يترتب عليها مصلحة المؤمنين وترتبط بها سعادة المسلمين لأن الله سبحانه وتعالي لا يأمر عباده الا بالخير والرسول كذلك لا يأمر الا بالخير فوجبت الطاعة لهما فيما يأمران به وينهيان عنه لانه خير ومصلحة للمؤمنين وكذلك وليّ الامر انما وجبت له الطاعة من حيث وجبت لله وللرسول لكونه منفذا لاوامر الله والرسول وهي خير كما تقدم فالطاعة له خير أيضا . ولاجرم ان العلم بالشيء من حيث انه خير يوجب الرغبة به والميل اليه فعلم المسلمين بهذه الطاعة أنها خير يوجب تأصل الشعور فى نفس كل فرد منهم بأن هذه الطاعة طاعة واجبة لله في جميع ما شرع من الشرع للمسلمين فوجب معها العمل بكل ماأمرهم به من التمسك بالعقائد والمحافظة على الدين والذود عن حياض الشريعة والقيام فى وجه العدوّ والاتحاد على كلمة الاسلام وغير ذلك من المصالح المتوقفة على الطاعة التى لا

سبيل الى ادائها الا بالعلم بها ومالا سبيل الى اداء الواجب الا به فهو واجب فالطاعة واجبة والعلم بها واجب أيضاً وهكذا الحال في سائر ما جاء به الدين لأن التوحيد الذى هو أول ركن من أركان الدين انما دعانا الله اليه من طريق العلم فقال تعالى (فاعلم أنه لا اله الا الله) فما بالكم ببقية فروع الدين وأصوله لهذا كان العلم الاجمالى بالدين واجبا على جميع المسلمين وبمعرفة هذا الواجب عمل الصحابة الكرام بسائر ما جاء به القرآن وأمر به نبينا عليه الصلاة والسلام فمن لم يكن منهم على علم تفصيلي بأمر الدين كفاه العلم الاجمالي فدعا الى الله على بصيرة وعمل بعلم وبهذا وصف الله المؤمنين واليه أرشدهم في قرآنه العظيم فقال تعالى مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم (قل هذه سبيلي ادعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) وبهذا ألف الصحابة الكرام قلوب الامم على الاسلام وعمموا الدين والسياسة واللغة بين الأنام فملؤا الامصار علما وضربوا دون الجهالة سداً فاخذوا بنواصى الامم وانقادت لهم الشعوب وانحطت دون هممهم همم قياصرة الروم وأكاسرة العجم ومرّت على ما أسسوه من قواعد العمل بالعلم بحقيقة الدين أعوام وأيام

آتى بعدها خلف انقلب الي الشهوات وقنع بآثار المجد وخلف آخر أحرجه مرض القلوب فلجأ الي الحشو في الدين والاكثار من القول على غير يقين ففرقوا وحدة الافكار وشتتوا اجزاء الامة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ألا ساء ما كانوا يصنعون

﴿ الدرس الثامن ﴾

﴿ الحكومة وضرورتها للاجتماع ﴾

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض)

قد علمتم لزوم الدين للاجتماع فينبغى أن تعلموا ان الملك أيضا من لوازم الدين والاجتماع ولهذا جاء في الحديث النبوي الشريف (الاسلام والسلطان توأمان) وذلك لما سبق شرحه من ان مصالح البشر لا تتم الا بالاجتماع وان الانسان الواحد يستحيل ان يقوم بسائر وظائف الحياة البشرية الا اذا رجع الي مصاف بقية الحيوان وليس هذا مراد الله في الانسان . ومن المقرر أن الاجتماع لا يخلو من المنازعات المفضية الى تغالب القوى المتنازعة وتكافحها فى ميدان الحياة

فاذا لم يمنع ذلك التغالب بقوة الوازع الذي يناط به تنفيذ أحكام الشرائع غلب القوي الضعيف فأهلكه وصدم الجليل الحقير فأماته وفي هذا من الخلل بنظام المجتمعات ما يؤدي الي فسادها وتداعي أركانها ولهذا لما شرع الله الشرائع للبشر جعل لها قوّاما هم الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام ثم الأئمة والخلفاء من بعدهم وفي قوله تعالى (ولولا دفع الله الناس) الآية اشارة الي ذلك المعنى كما جاء في تفسير الفخر الرازى الكبير وخلاصته ان الأنبياء الذين انزلت عليهم تلك الشرائع هم الذين يدفع الله بهم الآفات عن الخلق وانه كما لا بد في قطع الخصومات في الدنيا من شريعة فلا بد في تنفيذ الشريعة من قوام ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام (الاسلام أمير والسلطان حارس فما لا أمير له فهو مهزوم وما لا حارس له فهو ضائع) اه

اذا تقرر هذا فاعلموا ان الحكومات ضرورية للبشر ولا قوام لامة أو حياة لشعب الا بحكومة أو سلطان فمن شأن الحكومة أن تهيمن على الشرائع والقوانين وتعمل بها في ترتيب معيشة الشعب ونظام الامة وتنظر في سائر المصالح

التي تعود على الهيئة المحكومة بالخير وتدفع عنها الشر سواء كان ذلك بالنظر الي علائقها مع الامم المجاورة كربط صلة الجوار وتسهيل أسباب التبادل فى المنافع ووضع المعاهدات واعلان الحرب وابرام الصلح ونحو ذلك من العلائق الجوارية أو كان بالنظر الى شؤونها الداخلية كتوزيع الجباية ورد الحقوق وحفظ الأمن واقامة الحدود وتأمين السابلة وتسهيل طرق التجارة وغير ذلك من موجبات الراحة والنظام فى داخل المملكة

ويتفاوت نوع الحكومات فى كل مملكة بتفاوت العصور وتباين الاقطار فمنها الاستبدادى المطلق ومنها الدستورى المعتدل ومنها الجمهورى ولكل حكومة من هاته الحكومات صبغة خاصة بها واحسنها الصبغة الدستورية المعتدلة لانها وسط بين طرفى التفريط للصبغة الاستبدادية والافراط للصبغة الجمهورية ٠



﴿ الدرس التاسع ﴾

﴿ الحكومات والاسلام ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم ﴾

ان الحكومة انما هي جماعة من الشعب يترشحون لتولي شؤون الوظائف المناط بها ترتيب نظام الشعب والمحافظة على دواعي راحته ورفاهه فهم لا يمتازون عن الكافة بخصيصة من خصائص البشر أو بمزية من مزايا الترفع عن أمثالهم من الناس الا بكونهم قوام الشريعة أو القانون فتجب لهم على الناس الطاعة ما داموا في طاعة الشرع ليتسنى لهم تنفيذ أوامر الشريعة وتنظيم نظام الامة بايقاف النفوس المتغالبة عند حد القانون الذي هو سياج المجتمعات ومناط راحة الشعوب . ولكن قضت سنن الوجود الاجتماعي ان يأتي زمان على الانسان ينقاد فيه لاجهل المطلق بباريء الوجود فيعتقد بروح فعال بالحاكم أو السلطان وينزله منزلة المعبود في كثير من الاحيان كما يعتقده الصينيون بملكهم الآن مثلا وينعتونه لهذا السبب بابن السماء وكما كان اعتقد ذلك بملوكهم كثير

من الامم الخالية فغلوا في تعظيمهم ومن دونهم من الحكام غلواً تأباه الاحلام . ولما كانت تنزل الشرائع الالهية وتمحو عن صفحات العقول هذه الصور الباطلة والاعتقادات العاطلة فينصرف الناس الى وجه الحق ومحاسبة الوجدان ومعرفة الخالق الديان كانت تبقى مرتسمة في مخيلاتهم آثار التعظيم المشعر بالتدني عن درجات الحكام لمجرد كونهم حكاماً فقط لا لقصد وجهة العبودية الاولي وكانت هذه الآثار تجسم عند بعض الشعوب تارة وتضعف أخري بنسبة حال الحاكم وانصباغ الحكومة بصبغة العدل أو الاستبداد . ومما لا ريب فيه انه ما أفني الامم وقتل عواطف الشعوب فأضاعوا استقلالهم القومي وقضوا على حياتهم الاجتماعية الا ذلك الاعتقاد الفاسد والخضوع المطلق لارادة افراد قلّ أن تقف ارادتهم في سياسة الشعوب عند حد الشريعة أو القانون ولا تتجاوز بها غلبة الشهوات الى استعمال قوّة القهر المانعة من ترقي النفوس البشرية في مراقي الكمال الطبيعي الذى لا يتأتى الا باطلاق حرية العقل وتصريفه في أنحاء الوجود لتناول أسرار الطبيعة المسخرة لنفع الانسان بارادة خالق الاكوان الكريم المنان

أثبت التاريخ وقضت سنن الاجتماع ان تجاوز الهيمنة العادلة على قوانين الامم وشرائعها الي الحكم المطلق التابع لاغراض النفوس يقوض أركان الممالك ويدمر صروح العمران وذلك لما فيه من الظلم المفسد لاخلاق الامة الداعي لتفشي أمراض الخيانة والمداهنة والمكر والتحيل الباعث على تسلسل خلق الظلم في سائر طبقات الامة من أعلاها الي أدناها وذلك لفقد المناصحة بين الناس وقيام القوّة مقام الحق والسيف مقام القانون وناهيك بما ينشأ عن هذا من اذلال النفوس الكريمة واعتيادها على الرضوخ للمهانة والضعة وفقدها لاخلاق الشهامة والشمم والشجاعة وأي نهاية لهذا كله سوى موت الأمم وتداعي أركان الدول والعياذ بالله تعالي

ولدفع هذا البلاء عن الشعوب أتي الاسلام مؤسساً على العدل داعيا الى المناصحة بين المؤمنين منبهاً على فوائد العدل تارة وتقريع الظلم الذي هو ثمرة الاستبداد أخرى تقويما لاعوجاج الحكم الجائر عند الامم وتمهيداً لطريق السعادة بالاستقلال العقلي الذي قامت عليه دعائم المدنية الاسلامية المبنية على اطلاق حرية الضمائر والمناصحة العامة بين المؤمنين كما يشير

اليه قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم) وهو أمر عام يقضي على كل فرد من المؤمنين بتحرى مصلحة الآخرين جهد الطاقة . وان أمة تتكافل على مصالحها العامة لأمة حرية بأن تتقادها الشعوب وتمهد أمامها المسالك وتشيد بعدلها الممالك وقد تحقق للأمة الاسلامية ذلك حينا من الدهر انقلب بعده المسلمون خاسرين لما نزغ بينهم شيطان الدخيل فتفرقوا ونزعوا منازع وثنيته الاولى وما خافوا واتقوا فتحوا بذلك سبيلا للوهن على كلمتهم فتفرقت وعروة اجتماعهم فانحلت وعزهم فزال فانطبق عليهم قول رب العالمين (ان الله لا يغير ما بقوم حتي يغيروا ما بأنفسهم)

﴿ الدرس العاشر ﴾

﴿ العدل في الاسلام ﴾

(كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الي النور)

بينما كان الامم ترسف في قيود الاستبداد المطلق ويتخبطها شيطان الاستبداد الازرق فتتمثر باشباح القوة القاهرة وتهوى فى ظلمات

العدم أرسل الله تعالي نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم للأمم بشريعة لا تدع لسلطان القهر الجائر سبيلا الى النفوس ان تؤسر له وتهان بين يديه فوضعت للناس ميزانا لا ترجيح فيه لنفس على نفس الاّ بتقوى الله وأعطت للعقل حق الاستقلال المطلق لينشط من أسر الاوهام ويخرج من الظلمات الى النور وفصل القرآن ذلك تفصيلا لا غاية بعده لمستزيد لهذا قال الله تعالي فيه خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم (كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الي النور) فبين هذا الكتاب الكريم من آيات الحكمة البالغة بوجوب العدل فى سائر الاعمال على العموم وعدل الحكام على الخصوص ما فيه هدًى ورحمة للعالمين وبه ترتبط سعادة البشر أجمعين

ولما كانت أهم مراتب العدل ثلاثاً . العدل في الاحكام الالهية فيما يرجع الي ردّ الحقوق واقامة الحدود . والعدل في التساوي بالحقوق التي يشترك بها الناس وتقضي بها حرية العقل . والعدل فى المعاملات بين الناس بعضهم مع بعض كاجتناب الغش والخيانة والمداهنة وغير ذلك فقد لزم

أن نبين لكم ما جاء به القرآن من ذلك على وجه الاجمال ونتكلم على كل مرتبة من هذه المراتب كلاما عاما مجملا ولا يمنعنا هذا من أن نتلو عليكم قبل البحث في هذه المراتب بعض ما جاء في القرآن من التنبيه على العدل فيما لا ينضم الى هذه المراتب من سائر أعمال الانسان فمن ذلك قوله تعالي فى وجوب العدل فى المعيشة (ولا تجعل يدك مغلولة الي عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا) وقوله تعالي في العدل بين النساء (فان خفتم الاّ تعدلوا فواحدة) وقوله تعالي فى العدل بالكرم (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما)

وقوله تعالى في العدل بالشجاعة (ولا تلقوا بأيديكم الي التهلكة) وغير ذلك كثير من الآيات المنبهة على الاعتدال فى سائر الاعمال . والاعتدال كما لا يخفاكم هو العدل الذي هو أساس الفضائل وميزان السعادة القائم فى هذا الوجود لخير البشر وتهذيب النفوس بايقافها فى وسط من الاعمال بين طرفى الافراط وهو رذيلة والتفريط وهو رذيلة أيضا والفضيلة هى الوسط وهو العدل

﴿ الدرس الحادي عشر ﴾

﴿ مراتب العدل ﴾

(المرتبة الاولى)

﴿ واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾

ما قامت الدول وامتدت ظلال العمران واجتمعت كلمة الشعوب وتوثقت عرى الاجتماع الا بالعدل فالعدل روح ووجود الامم جثمان فاذا فارق ذلك الروح هذا الجثمان انحلّ وتطايرت أجزاؤه في الفضاء ومحي اسمه من عالم الاجتماع

ولما كان الانسان مفطوراً على الطمع وحب المزيد من كل شيء فقلّ أن يستأثر بالسلطة انسان ويقف بها عند حدّ محدود الا من عصم ربك لهذا أبي العدل ان تساس الشعوب بسياسة تضمن لهم بقاء الحياة المدنية الا بالحكومات الشرعية لا بسلطة القوة والقهر التي تسوقهم الى حيث لا يشعرون بالخطر الا ساعة وقوعهم في مهاويه

وقد جاءت الشريعة الاسلامية منادية بابدال الحكومات الماضية المؤسس معظمها على اطلاق يد القوة في سياسة

الشعوب وذلك تمهيداً لسبل الترقي بين الشعوب وتوطيداً لقاعدة العدل بين المسلمين على وجه بلغ من جلالة الوضع والترتيب ما تقصر دونه عقول البشر .

جاء القرآن الكريم آمرا بالطاعة لاولياء الامر الي حد محدود لا يتجاوز معنى الصلة العادلة بين الحاكم والمحكوم ليتمكن بمقتضاها من تنفيذ أوامر الشرع واقامة حدود الله بشرط ان لا تكون تلك الطاعة فيما يؤدي الى الخروج عما أمر به الشارع ونهى عنه وذلك في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم) ولا يخفي أن قرن الطاعة لاولى الامر بالطاعة لله وللرسول دليل على ما في ذلك من المصلحة للرعية لانا ندرك بالبداهة أن الطاعة لله وللرسول محض نفع راجع لانفسنا فيما أمرا به ونهيا عنه كفعل الخير وترك الشر لهذا قال الله تعالى (ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وكذا ولي الامر فانه لما كان مرتبطا بالشريعة فيما يأمر به والشريعة لا تأمر الا بعدل فقد وجبت له الطاعة من حيث وجبت لله وللرسول .لهذا كانت الطاعة في الشريعة الاسلامية من أهم القواعد التي تأسست عليها دول الاسلام لا سيما طاعة

الامام العادل فانها ركن من أركان الاسلام يجمع المسلمين تحت لواء واحد ويصون مجتمعهم عن عبث التفرق شيعا في الملك والدين ولكي لاتصرف مزايا هذه الطاعة في غير وجوهها النافعة كأن يتذرع بها الي شيء من الظلم فقد أمر الله تعالى الحكام بالعدل وحذرهم من عاقبة الظلم فقال تعالى (واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) وقال تعالى (اعدلوا هو أقرب للتقوى) وقال تعالى في التحذير (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون)

ثم لكي تصان قوانين الشرع وأحكامه عن العبث وتمشي على وتيرة العدل قرر القرآن قاعدة التكافل العام على قيام شرائع الاسلام وذلك في قوله تعالي (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) ولكى تكون المسؤلية عامة متبادلة ويتناصر المسلمون على قاعدة التكافل العام ولا يتخاذلوا قال تعالى (وأقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) وقال النبي عليه الصلاة والسلام كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته . هذا الاسلام وهذا الدين القيم الذى شرعه الله للناس ليخرجوا من الظلمات الي النور ومن العمى الى

الهدى وانما انعكس الامر مع المسلمين الآن لاخلالهم بقاعدة التكافل العام واشتغالهم باللغو واللهو عن حقيقة الاسلام وتفرقهم شيعا في الملك والدين واعراضهم عن الحق اليقين (فمن بدّله من بعد ماسمعه فانما اثمه على الذين يبدّلونه) انتهي الكلام على الروابط ولنأت على ذكر المقوّمات



القسم الثالث في المقوّمات

﴿ الدرس الثاني عشر ﴾

﴿ المرتبة الثانية ﴾

﴿ الحرية والمساواة ﴾

(ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا)

متى استقر العدل بين الناس على الوجه الذى ذكرناه وردت الحقوق وأقيمت الحدود وأمنت السبل تبسط الناس في مناحي الحضارة وجنحوا الى مدّ بساط العمران

وانما يتأتى لهم هذا بالتعاون والتناصر سيما اذا كانت الدهماء فرقا غير متناسقة في المشارب ولا متنسقة في عقد الوحدة الجنسية أو الدينية يحكم بعضها الآخرين فأحوج ما يكونون اليه التآلف والتحابب ليتأتى لهم التناصر والتعاون ويندفع عنهم خطر التناكر وانما يندفع هذا الخطر اذا وجد العدل بالحرية والمساواة وبني عليهما أساس التعارف المعنيّ في قوله تعالي (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا انّ اكرمكم عند الله أتقاكم) وفي قول النبي عليه الصلاة والسلام — لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى — وهذا ما يعبر عنه بالحرية الشخصية وهو كما أشرنا اليه ثاني مراتب العدل الثلاث في الاسلام وهو يرتبط بالمرتبة الاولي ارتباطا يتم به محو آثار العبودية لغير الله سبحانه وتعالى من نفوس الخلق ويشعر بوجوب حسن المعاشرة والمخالطة والعدل بين الناس في الحقوق التي يشترك بها أبناء الوطن الواحد بلا استثناء فلا يتفاخر بعضهم على بعض أو يستأثر بعضهم بحقوق بعض أو يستهين كبيرهم بالصغير ويتعد غنيهم علي الفقير بل يكون حسن المعاملة

والمحافظة علي الحقوق شاملا عاماً متبادلا بين الناس من سائر الطبقات ولا يستثنى من ذلك غير المسلم اذاضم والمسلم فى وطن واحد أواشتركا على منفعة واحدة وقد كان رسول الله صلي الله عليه وسلم يتعامل مع يهود المدينة ويحسن مواطنتهم لنقتدي به في حسن معاملة الناس ومعاشرتهم وكان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم يتباعدون فى بادئ الامر عن مجاملة كفار قريش ولو كانوا من ذوي قرباهم فنبههم الله سبحانه وتعالى الي أن ليس في معاملتهم والاحسان اليهم بأس ورغبهم بان يبروهم ويقسطوا اليهم فى قوله تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين) فحسن معاملة الناس ومجاملتهم واعتبار كونهم جسما واحداً يحيا بحياة أعضائه أمر قررته الشريعة الاسلامية وجاء به القرآن فينبغي ان تعلموه ولو لم يكن فيه من الامر بتبادل حسن المعاملة غير ما تقدم وغير قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسي أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكنّ خيراً منهنّ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب) لكفى

به موعظة وذكري للمؤمنين .

﴿ الدرس الثالث عشر ﴾

﴿ تعريف الحرية ﴾

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾

الحرّية من حيث هي هي استقلال العقل والاراد وانطلاق الانسان من قيد العبودية لاي شيء الا الله سبحانه وتعالي فهي واجبة له سبحانه لانه خالق الانسان وواهب العقل وقدقسموا الحرية بالتعريف الاعم الي قسمين الحرية العمومية والحرية الشخصية . فأما الحرية العمومية فهي تكافؤ الامة بالحق في مشاركة الحكومة بالرأي وتكافلها على قيام الشرائع والقوانين حتي لا يعبث بها عابث او تصرف على غير وجهها المقصود تبعا لاغراض النفوس وغلبة الشهوات عند الحكام وقد قررتها الشريعة الاسلامية وجاء بها القرآن كما رأيتم فى الدرس الحادي عشر ولها من الاثر العظيم في ترقي الامم ونشر لواء العمران مايشاهد عند الحكومات الاوربية المعتدلة

الآن وما بلغ بالمسلمين في الصدر الاول مبلغا من القوّة والمدنية والمجد يقف دونه النظر حائرا والانسان مقرا بفضل شريعة وضعت هذه القاعدة منذ ثلاثة عشر قرنا للمسلمين ولم يتوصل اليها غيرهم من الامم الا في هذه القرون الاخيرة بعد مكافحات شابت لها نواصي الولدان واصبغت هامة المغرب بنجيع الانسان .

وأما الحرية الشخصية فهي عبارة عن مبدإ المساواة الذي مر ذكره وفيه أمن الانسان على نفسه وعرضه وماله وتمتعه بسائر حقوقه الشخصية التي تخولها له طبيعة الاجتماع باعتبار كونه عضواً عاملا فيه وقد توسع بهذا المبدأ دعاة الحرية الجديدة في هذا العصر من الغربيين فقالوا وللانسان أن يعمل ما شاء بارادته على شرط أن لا يتعدى ضرره الى سواه وهو توسع ينافي مبدأ العدل في الحرية الاسلامية لما عقبه من الافراط الذى دعا الي التفريط بالفضيلة في الغرب حتى انطلقت النفوس في ميدان الشرور وانغمست في حمأة الرذائل تحت اسم الحرية وبقيد أن لا يتعدى ضرر الانسان الي سواه وكيف لا يتعدي ضرر من يحمل أمراض الفسق

والفجور والفاحشة وسائر أنواع المنكر ويمشي بها متهتكا تحت اسم الحرية وكل هذه أمراض وبائية ليس أسرع من تفشي ضررها في ربوع المدنية وفتكه فتكا ذريعا في الانسان ولقد أحس الاوربيون ببلاء الافراط بهذه الحرية وما تأتى عنها من المضار التي أقلها انتشار الفوضى والاشتراكية في ربوع المدنية وتهديدها لها بالخراب والتدمير وأخذوا يعملون الرأى في ايجاد طريق للخلاص من هذا البلاء وأني يهتدون الا بالدين الاسلامى المبين المبنى على الاعتدال في كل شيء المرشد الي سائر الفضائل والكمالات التى ترتبط بها سعادة البشر ويقوم بها التمدن الحقيقى للشعوب . اللهم نحمدك ونشكرك على ان جعلت هذه الامة الاسلامية أمة وسطا [1] ليشهدوا على الناس ويكون الرسول عليهم شهيدا ونسألك ان ترشدها للعمل بقرآنك واتباع سنة نبيك صلى الله عليه وسلم لتعود على بدئها وترجع ذاهب مجدها الذى انما ذهب لما فرطت في جنب الله ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

---

(١) أي عدلا كما فى تفسير الفخر وغيره

﴿ الدرس الرابع عشر ﴾

﴿ الحرية الاسلامية والحرية الغربية وهل يستويان ﴾

﴿ قل هل يستوي الاعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور ﴾

علمتم أن الحرية هى استقلال العقل وانطلاق الانسان من قيود الاستعباد المطلق ومتى أخذت الحرية من ذلك وسطا بين طرفي الافراط والتفريط حملت النفوس على الغيرة ونبهت فيها حب العزة والكرامة . والنفس الكريمة تأبى الاحجام وتنشأ على الاقدام فتطلب جلائل الاعمال وتتنكب طرق الدنايا وتطرح راحة الاخلاد الى المسكنة والذل ولا يصدر عنها أثر من آثار الحرّية الا مسبوقا بالروّية مقرونا بالفضيلة دالا على الثبات لما تأصل فيها من الرزانة الناشئة عن عزة النفس اذ من توابع العزة الرزانة والثبات وهما حياة الامم ومنبعث مجد الانسان وعكسهما الرعونة والطيش وهذان الخلقان يلازمان طرف الافراط في الحرية كما يلازم طرفه الآخر وهو التفريط الذل والمسكنة والوسط

بينهما هو الرزانة والثبات كما تقدم ولنضرب لكم مثلا ببعض
الشعوب الاوربية الذين تناهي عندهم الآن الافراط في الحرية
فقد يصدر عنهم من الضوضاء والجلبة عند كل حادث سياسي
مثلا مالا يصدر عن الشعوب المعتدلة بالحرية الذين اذا
فتحت لهم الممالك أو صبت عليهم الصواعق فلا نسمع لهم الا
همهمة أو حسيسا

وأما المفرطون في الحرية فمثلهم مثل الامم الشرقية التي
فقدت مزايا الاستقلال العقلي وسيقت بعصا القهر سوق
الانعام وناهيك به ذلا قاتلا للنفوس مميتا للهمم مفقدا
للاقدام نشاهده الآن بالعيان لهذا جاء الاسلام هادماً لاركان
الاستبداد مرشداً لحرية العقل ليحمل المؤمنين على عزة
النفس الداعية الي الرزانة والثبات الباعثين على العمل الممهد
لسبل المجد والسودد . وقد نال المؤمنون من ذلك حظا لم
تنله أمة من الأمم حتى بلغوا من العزة مكانا يكفي في التنبه
اليه قوله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) وانما
انحطوا الآن الى درك الضعة لما علمتموه من أن العزّة
ملازمة للحرية وقد فرطوا بها وخضعوا للاستعباد فاتخذوا

أولياءهم أربابا من دون الله ومن يدع مع الله الها آخر
خسا به على ربه (ولن تجد له من دون الله وليا ولا نصيراً)
وبالاجمال فالحرية حياة الامم ودعامة التمدن وأساس الترقي
العقلي في هذا الوجود البشري وشرطها الاعتدال وبه جاء
الاسلام وبهما عمل المسلمون زمانا قامت لهم به الدول وشيدوا
دعائم العمران ونشروا راية العلم وأخذوا بجماع القوة فهدموا
بها بنيان الاستعباد وحطموا صروح الاستبداد فملكوا
قلوب البشر واجتمع تحت رايتهم الشعوب على اختلاف
عناصرهم وتباين مشاربهم متهالكين فى سبيل الوحدة
الاسلامية التي هى أسّ الحرية البشرية المعنية فى قول الرسول
الاكرم والنبي الاعظم صلى الله عليه وسلم « لا فضل لعربي
على عجمي ولا لابيض على أسود الا بالتقوى » بهذه الحرية
قام الاسلام وساس المسلمون مئات الملايين من البشر لا يميزون
في الحق نحلة عن نحلة ولا كبيراً عن صغير ولا أميرا عن حقير
بل كلهم في الحقوق سواء وللحرية أبناء وبلغ من شعور المؤمنين
يومئذ بفضل هذه الحرية أن يهوديا ادّعى أمام عمر بن الخطاب
رضى الله تعالى عنه على عليّ بن أبي طالب رضى الله تعالى

عنه بحق له قبله وكان عليّ بحضرة عمر فقال له قم يا أبا الحسن ساو خصمك فظهر على وجه عليّ كرّم الله وجهه أثر الغيظ ثم قام وجلس في جانب خصمه وبعد انتهاء المحاكمة قال الخليفة عمر لعليّ رضى الله تعالي عنهما لعلك اغتظت من قولي لك قم يا أبا الحسن ساو خصمك قال لا وانما اغتظت لانك كنيتني امام خصمي فكان ينبغي أن تقول قم يا عليّ ساو خصمك وقد كان النداء بالكنية عند العرب من علائم التفخيم

بلغ الشعور بفضل الحرية والمساواة عند المؤمن على عهد الحرية الاسلامية أن لا يقبل التفخيم مهما كان عظيما فى قومه شريفا فى نفسه كعليّ بن أبي طالب رضي الله تعالي عنه في موقف لا يسود فيه الّا العدل ولا ينظر فيه الا للحق فليت شعري ماذا يقول المنصفون من دعاة الحرية الاوربية وأنصار المدنية الغربية في هـذا العصر عن حريتهم الجديدة ودعواهم العريضة هل فيها شيء من هذا العدل ؟ هل قطعت قيود الاستبداد ؟ هل تساوي فيها بقية الشعوب الخاضعين للسيطرة الاوربية وعلى الأخص المسلمون منهم كما كان اليهوديّ والنصرانيّ والعربيّ والعجميّ والابيض والاسود

سواء فى الحقوق على عهد الحرية الاسلامية وابّان السطوة العربية ؟

لا لعمر الحق . لا يقول ذلك المنصفون لان العيان أعظم شاهد وبرهان على أن الحرية الاسلامية والحرية الغربية لا يستويان (قل هو يستوي الاعمي والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور) وكيف يستوي ما بنى على أساس الدين الاسلامي المتين والنهج القرآنيّ القويم وما بني على التصنع والتلبيس التابع لاغراض النفوس .

فاللهم ان حرية كحرية الغربيين الآن يفرق فيها بين الشرقى والغربي والمسلم والنصرانى بل والبروتستانتى والكاثوليكي والحق فيها للقويّ يسحق بقوته الضعيف ويستهين بحقوق من عداه لحريّة حريّة بالنبذ والاستهجان لانها استعباد تأباه الانسانية والانسان ولا ينطبق على قانون الحرية فى كل عصر وزمان

﴿ الدرس الخامس عشر ﴾

﴿ المرتبة الثالثة ﴾

﴿ العدل فى المعاملة مع الناس ﴾

﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾

علمتم مما سبق بيانه أن العدل في الشريعة الاسلامية مطلوب في سائر أعمال الانسان وأن أهم مراتب العدل ثلاث استوفينا الكلام على مرتبتين منهن وها نحن نتكلم على المرتبة الثالثة وهي العدل فى معاملة الناس بعضهم مع بعض فنقول

العدل في معاملة الناس بعضهم مع بعض يكون في أمرين بالفعل واللسان والمراد من الامر الاول اجتناب الغش فى تبادل المنافع التجارية كالبيع والشراء ومن الامر الثاني اجتناب الغش باللسان وفيه المداهنة والخيانة والتغرير وغير ذلك من أنواع الغش الذميم التى هي أمراض تنهك قوى المجتمعات وتذهب بحياة الشعوب والمقدم عليها ظالم يضر بنفسه وبأبناء جنسه ولنتكلم قليلا على الامر الاول ثم نأت

بعده على الامر الثانى كل ذلك بطريق الاجمال الذى يناسب المقام اذ دروسنا لا تسع التفصيل بالتمام

لايخفي أن تبادل المنافع التجارية بين الناس هو عبارة عن عوض يستحقه المستعيض في نظير عوض يستحقه المعيض كالتاجر اذا باعك من الحرير مقدارا معلوما فانه انما يبيعكه فى نظير مقدار من الدراهم معلوم يستحقه قبلك كما تستحق أنت قبله ذلك المقدار من الحرير في نظير دراهمك استحقاقا حتمياً يوجبه الشرع وتقضي به سنة الوجود البشرى القائم على أساس تبادل المنافع التي هي نتيجة العمل المتبادل أيضاً ودعامة الحياة الاجتماعية بين أصناف الانسان . ويشترط فى هذا التبادل التعادل فى القيمة وان اختلف المقدار فمن أخلّ من المتبادلين بهذا التعادل بأن غشّ أحدهما صاحبه بأصل القيمة كبخس الوزن وتغيير النوع بأدني منه أو عمد الآخر الي دفع الثمن نقودا زائفة فقد تعمد تنقيص العوض المستحق قبله ومن تعمد ذلك فهو ظالم غاش بل سارق محتال لا فرق بينه وبين اللص الا بكون هذا مرتكب جناية ربما دفعه اليها الاحتياج والفقر وذلك مرتكب جناية لم يدفعه

اليها سوي طمع النفس وحبها للظلم وهو ظلم مذموم وعمل مضر هادم لاعظم ركن من أركان الاجتماع المدنى وهو الثقة التي يتوقف عليها نظام سير المعاملات الدنيوية فاذا دخل الغش في هذه المعاملات فقدت الثقة من نفوس الناس بعضهم ببعض فيقف لذلك دولاب التجارة فتبور الصنائع وتقل المكاسب فيحتال الناس على أسباب المعيشة ويتهالكون على تحصيل القوت من غير طرقه المشروعة فتفسد أخلاق الامة وتنحط لقلة العمل مداركها وينتهى ذلك بضعف قوتها وتفريق مجتمعها بل وفقد حريتها واستقلالها وتحكم يد الاجنبي فيها كما نشاهد ذلك في المشرق الآن فلا يفتقر لاقامة الدليل والبرهان. لهذا جاء الشرع الاسلامي آمرا بالعدل في المعاملة ناهيا عن الغش فيها بأشد الزواجر فقال الله تعالى في القرآن الكريم (وزنوا بالقسطاس المستقيم) وقال تعالي فى معرض الزجر (ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أوو زنوهم يخسرون) وقال تعالي (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) وقال تعالي (أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم) وقال النبي صلي الله عليه وسلم (ليس

منا من غش) وهذا يفيد خروج الغاش من عداد المؤمنين والعياذ بالله تعالي وفيه من المبالغة فى الزجر عن الغش أعظم عبرة للمؤمنين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه والعاقبة للمتقين . لهذا وجب اجتناب الغش في المعاملة بسائر أنواعه لما فيه من الضرر على الناس بالعموم وعلى الغاش بالخصوص لما أن ثروة الفرد الواحد في كل مجتمع انما ترتبط بثروة الباقين فمتى قلت الثروة عند المجموع فانها بالطبع تقل عند الفرد ومن أسباب فقد الثروة كما تقدم تفشي مرض الغش بين الامة.وأحسن دواء له محاسبة المرء نفسه فى معاملته مع الناس ومراقبته الله تعالى في ذلك بحيث يكون له من نفسه داع يدعوه الي تقوى الله ومعاملة خلقه بالعدل عملا بقوله تعالى (اعدلوا هو أقرب للتقوي)

﴿ الدرس السادس عشر ﴾

﴿ المداهنة ﴾

﴿ والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ﴾

قلنا ان اجتناب الغش باللسان هو من جملة العدل في

المعاملة ومن ذلك المداهنة والخيانة والتغرير فان هذه أمور
أكثر ما تكون للغش باللسان وصاحبها انما يمكر بهذا الغش
مكرا يحاول به جر مغنم لنفسه وان أضر بسواه (والذين
يمكرون السيئات لهم عذاب شديد)

وأول تلك السيئات المداهنة وهي نوع من النفاق أو
النفاق عينه والغش فيها هو من جهة ما يراد بها من التملق الكاذب
ومدح الانسان بما ليس فيه استرضاءً له واستجلاباً لخاطره
وفى هذا من الضرر ما يربو على كل ضرر سواه اذ أنه يوجب
استشعار المداهن (بفتح الهاء) الكمال بنفسه واغضاءه عن
كل نقيصة فيه ربما اذا علمها من نفسه بادر الي ازالتها والتحول
عنها الي ما هو اكمل منها . وفضلا عن هذا فان سرور المرء
بالمداهنة ربما يؤديه الى اعتبارها حسنة فى نفسها فيداهن من
هو أعلى منه وهكذا تتسلسل هذه الرذيلة في سائر طبقات
الامة حتى يعم بها البلاء وتفسد بسببها الاخلاق وربما
بلغت المداهنة عند بعض الطبقات أحيانا أقصى درجات النفاق
فيتقرب بها الصغير الي الكبير ولو بأن يضر أهله وولده أو
بنى وطنه فى سبيل استرضاء المنافق له وفى هذا من الغلو في

الدناءة والمغالاة في الغش ما يفضي أحيانا الى ايغار الصدور ووقوع الفتور بين الامير والمأمور والحاكم والمحكوم فتنحل عروة التآلف ويشوش نظام الاجتماع كل ذلك بعبث المنافقين وغش المداهنين الذين انذرهم الله بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة وحسبهم من ذلك الذل والعار قوله تعالى (ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار) فينبغي على كل مؤمن بالله خائف من عقابه وكل محب لوطنه حريص على شرفه اجتناب المداهنة والنفاق لانهما غش لا يرضاه الانسان الكامل وتأباه المروءة كما ينبغي الاحتراس من المداهنين وتدارك شرهم عن أن يسرى في الامة بدواه الخبيثة بنبذهم نبذ النواة وعدم الرضاء بغشهم في أى حال من الحالات اقتداء بالصحابة الكرام الذين بهم قام الاسلام وبعملهم يقتدى المؤمنون فقد ذكر الامام الغزالى في الاحياء انه قيل لبعض الصحابة لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله فيهم فغضب وقال انى لاحسبك عراقيا [1] وان بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلا عن شيء فقال أنت ياأمير المؤمنين خير مني وأعلم فغضب وقال

(١) اشارة الى ما كان مشهورا يومئذ عن أهل العراق من النفاق

اني لم آمرك بأن تزكيني . وانها والله لشيم شماء ونفوس تأبى أمثال هذه النقائص وجدير بكل مؤمن القلب طاهر الخلق أن يعرف من نفسه ما لا يحتاج للعلم به من سواه

﴿ الدرس السابع عشر ﴾

﴿ الخيانة والتغرير ﴾

﴿ ان الله لا يحب من كان خوانا أثيما ﴾

كل من غش باللسان لأمر يريد به النفع من حيث يضر بسواه فهو خائن كالمداهن والمغرر وقد علمتم من مضار المداهنة ما فيه الكفاية . وأما التغرير فأنواعه كثيرة . منها أن يغرر البائع بالمشترى بسلعة يصفها له بأنها من أجود ما تكون من نوعها مثلا اغراء له على أخذها وتكون هى دنيئة رديئة في الاصل وانما قصد المغرر بيعها بثمن الجيدة ولو أضر ذلك بالمشترى . ومنها أن يحسن لك الانسان عملا ربما كان في نفسه قبيحا وانما هو يحسنه لك ليكون له من ورائه نفع ذاتى فلا يبالي أضر ذلك العمل بك أو نفع . ومنها وهو أشد أنواع التغرير ظلما وأشرها عاقبة غش الامة بما يضلل أفكارها

أو يدس في كتبها من الاضاليل المنافية لقواعد الدين الصحيح القاتلة لاحساسات الناس المشوشة على العقل وأنواعها كثيرة وانما هي بدع ابتدعها في الدين أناس لم يريدوا بها وجه الله بل عرض الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون . والتاريخ أعظم شاهد على ذلك ولكن اكثر الناس لا يشعرون (وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) ومهما بحثنا عن اسباب التقهقر العقلي والديني في الامة الاسلامية لانجدله سببا أعظم من التغرير الذي أثر آثاراً قبيحة في عقول الامة وأهمها الاعتقاد بالجبر أو ما يقرب منه لتجريد الانسان عن كل ارادة واختيار مما ينافي حكمة الله تعالي في خلق الانسان وتفضيله بالعقل والعلم والارادة على سائر الحيوان لاسيما وان الله تعالي قال (علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم) ولبيان تشريف الانسان بذلك قال تعالي (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) فكيف يمنح الله سبحانه وتعالي الانسان قوة العلم والتفضيل على سائر الحيوان ويشرع له الشرائع والاديان ويكلفه للعبادة ثم يسلبه الارادة . اللهم ان أناساً يضللون عبادك بمثل هذا

التضليل بعد أن قلت (وفي الارض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون) لاناس ظالمين لانفسهم غاشين للناس (وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون)

لهذا ينبغي على العاقل ان لا يبادر الي كل ما يسمعه أو يراه فيحمله على محمل الصدق بل يمعن النظر ويبحث عن الدليل فى كل شيء يرد على العقل كى لا يغرر بنفسه ويلقيها فيما لا تحسن عقباه اذ العقل آلة تتناول ما ثبت بالحس والبرهان وتترك ما وراء ذلك لعلم الخالق الديان. ولهذا جاء فى قوله تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) والرسول انما أتانا بشريعة كاملة سمحاء وهدي وكتاب مبين لا ينهى عن طلب العقل للدليل لاطمئنان الوجدان للحق واعتماد العقول على البرهان بل يأمر بذلك ويقرع التخريص والجدال بغير علم ويدعو الى الحق بالبرهان ويصف المؤمنين بكونهم لا يعملون الآ على بينة من كل أمر بل والكتاب كله معجزة من معجزات البرهان التى تأيدت بها رسالة نبينا عليه الصلاة والسلام هذا وهو يذم أهل التضليل وينهى عن استماع اللغو من القول ويشير الى أن أهله معروفون وبالتحريف موصوفون

وذلك بقوله تعالى (ولتعرفنهم فى لحن القول)

وأما بقيـة أنواع التغرير فكثيرة والكلام عليها طويل وما مرّ منها فيه الكفاية . والتغرير من حيث هو ظلم وعدم أمانة وفاعله خائن أثيم بعيد عن مراتب الشرف والذمة مكروه من الله والناس . والله سبحانه وتعالى نهي المؤمنين عن الخيانة وأمرهم بالصدق والامانة فقال تعالي (ياأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون) وقال تعالى (ان الله لا يحب من كان خوّانا أثيما) وما إخال الا أن كل مستمع منكم لمجرد اسم الخيانة يشعر بحس غريب ينبه فيـه سائر عواطف الاشمئزاز من هـذا الاسم الشنيع الذي تأباه النفوس الشريفة ويتألم منه السمع فكيف بالعمل نفسه انه أشـد تنكيلا بالنفس ووخزاً للضمائر وقانا الله جميعا زلة القدم فيه وعاقبة الندامة منه انه مجيب الدعاء

انتهى الكلام على مراتب العـدل الثلاث ولنتكلم على بقية المقوّمات

﴿ الدرس الثامن عشر ﴾

﴿ الثبات والصبر ﴾

(ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا)
(بالحق وتواصوا بالصبر)

ان الدنيا ميدان تتسابق فيه الهمم وتتباري عليه الامم فمن سبق فاز بالحسنى وكانت يده فى هذا الوجود هى العليا ومن قصر ونى [1] كانت يده هى الدنيا وعاش عيشة الاذلّ الادني وانما ينال السبق بالثبات والصبر وعدم التقلب والضجر وليس في الوجود عمل الا ويحتاج الي الثبات بنسبة ما فيه من المشاق وما يحول دونه من العوائق التي لا يزيلها الا المثابرة عليه والثبات له . وفي الحقيقة فانه ما افاض نور العقل على نفس الانسان من هدى وما حرك الآمال فدفع بالرجال الي جلائل الاعمال فتناولوا أسرار الطبيعة من كبد السماء واستخرجوا كنوز الغنى والثروة من بطون الارض وما عمر الارض وأحياها وشيد دعائم المدنية وبناها وما مكن فى النفوس رغائب الحياة فتنافست بمحاسن الاعمال

(١) تعب

واستمسكت بعروة الجد فبلغت منتهي الكمال . وبالجملة ما قام لوجود البشر وجود وقرب طريق السعادة للانسان كالثبات الثبات ثم الثبات الثبات وفى المثل من ثبت نبت ومن صبر ظفر وكيف لا يظفر الصابر برغائبه وينال ذو الثبات متمناه وقد قال الله تعالي في كتابه الكريم (ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) وقول الله هـذا خير منبه للمؤمنين على الثبات والصبر واذا بحثنا فى تاريخ الامة الاسلامية نجد أن الصبر والثبات كانا من أهم دواعى سيادتها على الامم وترقيها في معارج المجد وهكذا الحال ايضاً في كل امة كان الثبات رائدها وقوة العزيمة سندها وهل ظهر أفراد الرجال الا بالثبات ؟ وهـل خدمت المدنية قوة كالاختراع والتفنن بالابتداع وانما هي قوة لا تصدر عن غير اهل الثبات لما يلاقونه فى سبيل العمل من المصاعب والمتاعب التي لو خالطها شيء من الملل والتردد لما نجح أربابها ولخاب عمل أصحابها ولكن بالثبات بلغوا أقصى الغايات .

ولقد بلغ الثبات عند علماء بعض العلوم فى القرون

المتوسطة الهجرية أن صاروا يكتبون علومهم بالخطوط العبرانية مع أنها في اللغة العربية وذلك لكي يدفعوا عنهم أذي الاضطهاد الذى كانوا يلاقونه من الملوك في تلك العصور [1] وبلغ الثبات أيضاً عند علماء المغرب في بعض العصور المسيحية أن كانوا ينالون من الملوك أنواع العذاب ويساقون الى السجون بغير حساب ومع ذلك كانوا لا ينفكون عن المطالعة والبحث ولو كان فيهما المنون . ويرسلون بأشعة أفكارهم من ظلمات السجون . وبثباتهم هذا خدموا الامم الأوربية وأخرجوها من ظلمات الجهالة الي نور المدنية .

والثبات انما هو قوّة في النفس تحتاج الي سبق الارادة وصدق العزيمة مع التصميم الذى لا يشوبه التردد في الرأى ولهذا وردت الاشارة في قوله تعالى (فاذا عزمت فتوكل علي الله) فان من توكل علي الله حق توكله في أمر يعزم عليه ولم

---

(١) ان السبب الداعي لاضطهاد أرباب تلك العلوم فى القرون المتوسطة الاسلامية هو تحول حال الحكومات الاسلامية الى حد من الاستبداد يأبى وصول العقول الى درجة العلوم التي تنبه فى أفكار الامة معرفة الحقوق والواجبات التي انتزعها منهم ذلك الحكم وقد مر فى دروس العدل مافيه البيان الكافى بهذا الصدد

يخالج ضميره بعد التوكل أدني تردد فيما عزم عليه لحق على الله أن يسهل له سبيل الوصول الى متمناه والله مع الصابرين

﴿ الدرس التاسع عشر ﴾

﴿ الاعتماد بعد الله على النفس ﴾

(وأن ليس للانسان الا ماسعى وأن سعيه سوف يرى)

اعلموا أن الله سبحانه وتعالي فطر الناس على فطرة هي قوة طبيعية متهيئة من أصل الخلق للتلون بما يعرض عليها من الصور في بدء النمو العقلى والجسمى فتنطبع عليها أشد الصور التصاقا بها ومرورا عليها ومن ثم يتولد عن هذه الفطرة من الاعمال والاخلاق في أطوار الحياة البشرية صور كلها تستمد من أصل واحد وهى الصورة الاولي . ولهذا يشير الحديث النبوى الشريف (مامن مولود الا يولد على الفطرة فابواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء) ومن المعلوم ان الانسان مستعد للترقى بالطبع فهذا الاستمداد هو عين تلك القوة الطبيعية التي خلقها الله في الانسان وفطره عليها فاذا عرض لها في بدء النمو العقلى

مايصرفها الي الكفر كفر صاحبها أوالي الايمان آمن أوالي النشاط والعمل نشط وعمل أوالي الكسل كسل او الى سوء الخلق ساء خلقه أو الي حسن الخلق حسن خلقه وهكذا كل ماعرض لهما فى بدء النمو العقلى والتصق بها انصرفت اليه ونشأت عليه وقدمرّ علي الانسان أجيال متطاولة كان يعلو ويسفل فيها بنسبة حال التربية التى كانت تنشأ عليها فطرته من خير أوشر وبلغ ذلك فى الانسان في بعض الاحيان أن كان يخرج عن كل حول وقوة لاعتقاده بصارف يصرفه من المظاهر الطبيعية أوالاجرام السماوية واستسلامه فى هذا الفطرة وماتربت عليه حتى بلغ ذلك ببعض شعوبه مبلغا من التسفل والانحطاط الى دركات الهمجية ومزالق الكفر بارئ البرية ما أوضحه لنا التاريخ وأيده العيان في أمثال أولئك الشعوب من سكان افريقيا الآن

ولما كان مراد الله سبحانه وتعالى بالانسان تشريفه وتفضيله على سائر الحيوان بارشاده الى استخدام قواه العاقلة ومداركه العالية فى سبيل ترقيه عن المرتبة الحيوانية الي المرتبة الكاملة الانسانية فقدشرع للشعوب من الشرائع مايتكفل لهم بنوال

تلك النعمة وأرسل لهم الرسل بذلك مبشرين ومنذرين فكانوا تارة يقبلون وتارة يعرضون وتارة يؤمنون وتارة يكفرون حتى بعث الله نبينا محمدا عليه الصلاة والسلام وأنزل عليه قرآنا فيه هدي ونور يدعو العقول الي الانفكاك عن قيود الاستسلام المطلق للاوهام السابقة ويستحثها على الانفلات من أسر الضلال ويرشدها الى سنن الكون السائرة على نظامها الطبيعي المصون عن الخلل لقيامه بميزان العدل الالهي الذي به استتبت أمور العالم وانتظم ذلك النظام البديع واليه وردت الاشارة بقوله تعالى (والسماء رفعها ووضع الميزان) وبقوله تعالى (الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان) ومن عدله تعالي القائم بميزان الحق المبين فى ذلك الكتاب الكريم أن الاعمال التعبدية وان يكن المقصود منها نوال الحياة الأبدية في الدار الآخرة الا انها لا ينبغى ان تمنع عن العمل للدنيا كما وردت الاشارة اليه بقوله تعالى (ولا تنس نصيبك من الدنيا) وذلك لان الدنيا ذريعة للآخرة ومن رحمة الله وعدله أن منح المؤمنين الحسنى في الدنيا وهو التمتع بنعيمها كما وعدهم بذلك فى الآخرة وهى أجل وأبقي ولهذا

وردت الاشارة بقوله تعالي (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين) ومتى بلغ العقل في الانسان مبلغ العلم بهذه السنن الالهية تمهد له طريق الانتفاع من مداركه السامية بالبحث عن المنافع والمضارّ فهبّ لاخذ النافع له من طريق العمل المتوقف على الجد والسعي كما يشير الى ذلك قوله تعالى (وأن ليس للانسان الاّ ماسعى) وقوله تعالي فى التنبيه على ان سلطان العقل مطلق بعد أداء واجب الدين في ان يسير بصاحبه في طرق العمل ابتغاء الرزق بل مكلف الي ذلك (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله) أي من رزقه

هذا ماجاء به القرآن وأوضحه الاسلام للبشر لحلهم من وثاق الجهل ببدائع السنن الالهية وحضهم على دفع الاوهام التي من شأنها اماتة العقول والاجسام وحثهم على الاعتماد على النفس بعد الله بالعمل لا الاعتماد على أوهام آبائهم الاول واتهام الزمان بنتائج الخمول والكسل

﴿ الدرس العشرون ﴾

﴿ تتمة في الاعتماد على النفس ﴾

﴿ ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل ﴾
(والنهار لآيات لاولى الالباب)

الانسان مستعد للترقى بالطبع ميال الي طلب المزيد من كل شيء وبهذا الميل وتلك الفطرة التي فطره الله عليها ينشط للعمل ويدأب فى السعي في هذه الحياة لترقي معيشته وتعزيز جانبه ولهذا هو ميسر وللعمل والعبادة مخلوق لان الله سبحانه وتعالي خلق كل شيء فأبدع صنعه بأن أناط به من الوظائف ورتبه على نظام من السنن الالهية والنواميس الفطرية ما نشاهد آثاره فى هذا الوجود وبدائعه التي يشهد بسببها بقدرة الخالق تعالي كل موجود ولمثل هذه السنن والنواميس المدبرة بحكمة الحكيم وردت الاشارة بقوله تعالي في القرآن الكريم . (وكل شيء عنده بمقدار) وفى قوله تعالي (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب) والانسان بما أودع الله فيه من قوي العقل الباهرة وأعده له من نعيم الاستمتاع بنعم الارض الوافرة داخل تحت

تلك السنن بما غرز فيه من القوى المدركة التي ترشده الى العمل والسعي على سنن اذا لم يجر عليها ويعمل بها لا يتوصل الي تلك النعمة ولا يتمتع بذلك النعيم . وانما يعمل الانسان بتلك السنن ويعلمها اذا نبذ الاوهام والصدف التي يسميها بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان كالسعد والبخت ونحوهما من الاسماء التي تعترض ترقي الانسان وتمنعه من الاعتماد على النفس والنشاط في العمل الذي هو مخلوق من أجله وميسر له ولا يمكن بدونه بلوغه درجة الكمال الانساني التي من مقتضاها ترفعه عن مرتبة الحيوان وتبسطه في مناحي الحضارة والعمران وفي الحديث (اعملوا فكل ميسر لما خلق له)

اذا تقرر هذا فقد علمتم منه ومما سبق بيانه في الدرس السابق أن القرآن يدعونا معاشر المؤمنين الي السعي والعمل والاعتماد على النفس لا على الاباطيل الماضية والاوهام المضرة التي حثنا الله سبحانه وتعالى على الانفلات منها والشذوذ عنها لئلا تنشأ عليها أخلاقنا وتتلون بها فطرنا فتصدنا عن سبيل العمل وتحشرنا في عداد الامم الجاهلة بمزايا الانسانية الموثقة برباط الاستسلام الأعمى التي أراد الله سبحانه

وتعالى بارشادنا الي طرق الخلاص إمنه تفضيلنا عليها وتمييزنا عنها كما تعلمون ذلك من قوله تعالى« كنتم خير أمة أخرجت للناس »

أفليس من الفضيحة والعار على أمة بهذا جاء قرآنها وكذلك كان بين الأمم شأنها أن تصبح الآن ضعيفة الافكار مستسلمة لما تسميها الاقدار وضيعة الجانب مهضومة الحق مسلوبة الاستقلال العقلى بيد البدع الضالة التى أودت بحياة النفس الطاهرة الاسلامية وقتلت هممها العالية فاصبحت لا تعتمد الاّ على التمائم ولا تعمل الاّ بالطيرة والفأل شأن الجاهلية الاولى الذين كانوا فى الضلالة يخوضون (ذلك بأنهم قوم لا يعقلون)

أيّ أمة يكون الاسلام امامها والقرآن مرشدها والله سبحانه وتعالي يعظها ويذكرها (وفى الارض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون) (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) وهي ترى أن الاستبصار انما هو في عدم البحث عن تلك الآيات ووضع العقل فى وثاق الجهل بكل ما يخرج عن علم العبادات .

وأي آية أعظم من آية العقل الذي أخضع نواميس الكون فاستنزل الصواعق من السماء وزجّ بها فى أعماق الغبراء واستخدم البرق لنقل الاخبار والبخار لجوب القفار وفعل فى هذا الوجود أفاعيله التي تقضى بالاستبصار .

اللهم ان العارف ببدائع صنعك من طريق العلم والدين الواقف على حقائق موجوداتك بالحق اليقين المستبصر بما خلقت فى هذا الكون من عجائب مخلوقاتك لاشدّ حباً لك واعتقادا بألوهيتك وتعظيما لجلال قدرتك وقياما بحق عبادتك ممن هم لا يعلمون ذلك ولا يستبصرون . و(هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون) (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب)

﴿ الدرس الحادى والعشرون ﴾

﴿ العلم والتعلمّ ﴾

﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾

العلم يا هداكم الله وأرشدكم اليه مناط الحياة الاجتماعية وأس الحضارة والعمران وأول المقوّمات التى لا تقوم الا بها

حياة المجتمعات . وتعريف العلم بوجه الاجمال أنه العقل الغريزي اذا ترقى الي متناول المعرفة بحقائق المحسوسات لهذا يمدح الانسان العاقل بنسبة ما عنده من العلم بتلك الحقائق فيقال فلان عاقل عالم أو نابغة أو حكيم وهكذا بالتدريج وكلما كان الانسان واسع العلم كثير المعرفة واقفا على حقائق الاشياء كلما كان وجيها في قومه محترماً من الناس قوي الجانب مقبول الرأى عارفاً بطرق السعادة ميسراً للعمل شديد الهيبة فى نفوس الناس وهكذا الحال أيضاً باعتبار المجموع كما هو باعتبار الافراد أى كما تكون هذه النعوت لشخص بمفرده كذلك تكون لامة بمجموعها اذا انتشرت بين أفرادها أنوار العلم وعمت بينهم المعارف ولا دليل نقيمه لكم على هذين الامرين أعظم مما هو واقع تحت الحس والمشاهدة فانا نرى بأعيننا ونسمع بآذاننا ان كل عالم بلغ درجة الكمال في العلم لا تنفك عنه هذه النعوت ومقامه في هيئة الاجتماع أعلى وأعظم من مقام الجاهل والامم كذلك فان المشرق الآن يموج بكثرة الامم والشعوب موج البحار ومع هذا فهو منحط عن الغرب بسائر أوصاف القوة والكمال وقد أصبحت السيادة

للغربيين على معظم أنحاء المشرق وسكانه ولماذا ؟ لعلم أولئك وجهل هؤلاء .

العلم طريق السعادة للدارين ومنبعث مجد الامم وينبوع ثروة الشعوب وما أذل المشرق بعد العز وأفقر سكانه بعد الغنى وأقفر أوطانه بعد أن كانت آهلة بالعلم مزدحمة بطلابه الآ اهمال أهله للعلوم واسترسالهم في الشهوات مع ان أعظم أمم المشرق التي بلغت أعلى مقامات الحضارة وترقت فى العلوم الي ذروة الكمال فرفعت منار التمدن وتبسطت فى مناحي العمران لم تبلغ ما بلغته من ذلك الامة الاسلامية في عصر ترقيها وإبان مجدها وأين هى من ذلك المجد الآن ؟ ولماذا أخنى عليها الزمان ؟ لتركها العلوم النافعة فى الدنيا واشتغالها عن ذلك بالاستغراق فى البذخ الذي أنهك قواها وأفقدها مجدها ولو استمرت على خطتها الاولي والقرآن امامها يحثها على العلم ويمهد لها طرق السعادة لكانت لهذا العهد صاحبة السيادة على معظم اجزاء المعمور والمتسلطة على خزائن الارض . ومع هذا فهي اذا اطرحت دواعى اليأس الآن واستيقظت من غفلة الوسنان واسترشدت بالقرآن فنهضت نهضة رجل واحد

فى سبيل تعميم العلم والتعليم على طرقه النافعة وأصوله المرغوبة لمثل هـذا العصر. عصر الاختراع والابداع. عصر العجائب والغرائب. عصر العلوم والمعارف تصـل بلا ريب الى مبتغاها وتعيد سالف مجدها .

أينما نظـر المؤمن فى القـرآن الـكريم يرى أن الله سبحانه وتعالى يحث المؤمنين على العلم ويخاطب العقل ويأمر بالتبصر فى آيات الـكون والتفكر في خلق الله وذلك كما فى قوله تعـالى — لقوم يعلـمون — لقوم يتفكرون — لقوم يعقلون — لاولى النهى — لأولى الالباب — وغيرذلك من الآيات الـكثيرة الدالة على عناية الله تعالى بالمؤمنين وحثهم على اطلاق العقل من قيد الجهل المهين ليخرج بهم من الظلمات الي النور ومن العمي الى الهدى وأية عناية من هـذا القبيل أعظم من عنايته تعالي بالمؤمنين فى قوله جل وعلا (الله ولىّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الي النور) . أى الى العلم . بل أى ترغيب بالعلم وتشريف لقدر العلماء أحسن وأجل من قوله تعالي (يرفع الله الذين آمنوا منـكم والذين أوتوا العـلم درجات) بل أي منشط على العلم داع الى التملص من الجهل

أعظم من قوله تعالى يصف العلم بالحياة والجهل بالموت ويفضل العالمين على الجاهلين (أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) لهذا كله وجب علينا معاشر المؤمنين أن نسعى وراء العلم سعي الرائد المجدّ لندرك شأو آبائنا الاولين ونحيا حياة طيبة كحياة أسلافنا الطاهرين والله مع الذين آمنوا والذين هم متقون

﴿ الدرس الثاني والعشرون ﴾

﴿ العلم بالعمل ﴾

(كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون)

لا تستقيم أعمال الانسان الا بالعلم اليقيني الذي هو ترقي العقل الي درجة الاحاطة بما يكتنف الانسان من أسباب السعادة والشقاء أو تنازع البقاء الذي هو حياة القويّ بموت الضعيف وانما يتيسر وصول العقل الى هذه الدرجة من العلم بالتعلم والتهذيب اذا روعي فيهما جانب الفضيلة علي وجه يشعر معه المتعلم انه انما يتعلم ليعمل فينفع نفسه وبني جنسه بالعلم وكأين من عالم لم يبلغ علمه درجة اليقين الداعية للشعور

بوجوب العمل وعاش عمراً طويلاً في هذا الوجود ولم يترك فيه أثراً من آثار العلم النافع لانه انما علم ولكن لم يعمل بما علم فعلمه وجهله سيان . اذ ما الفائدة ممن يتعلم ويقول أناعالم ولا يتبع القول بالعمل فيعمل بما رزقه الله من العلم وأولي بمثل هـذا العالم أن يخشى الله بكذبه على العام فان الله تعالي يقول « كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون »

واعلموا أن العلم هو الميزان الذي تتكافأ به قوي الشعوب المتنازعة فى مضمار الحياة المدنية مادام العمل به متبادلا بين المتنازعين ومتي وقف أحدهما عن العمل واستمر الآخر فى عمله رجح هـذا على ذاك بالضرورة فنازعه البقاء وغلبه عليه ولهـذا وردت الاشارة فى قوله تعالي (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) أى بالعدل المانع من تغالب الناس المفضي الي ضعف المجتمعات وفنائها وانما يقوم الناس بالقسط برد جميع الاعمال الي ميزان الشرع الذي هو الكتاب المرشد الى العلم بمصالح الانسان الدنيوية والاخروية ومتي قام الناس بالقسط وتكافؤا بميزان العمل بمصالح حياتهم الاجتماعية

أمن كل فريق منهم غائلة تنازع البقاء ما لم يختل ذلك التكافؤ برجحان احدي كفتي ميزان العمل من المتنازعين فعندئذ لا مناص من غلبة الراجح على المرجوح وحياة قوم بفناء آخرين بحكم السنن الطبيعية التي سبق بها العلم الالهي في هذا الوجود الخلقي واليها يشير القرآن فى قول الله تعالي (سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وقوله تعالي (وتلك الايام نداولها بين الناس)

اذا تقرر هذا فقد علمتم أن العلم بلا عمل لا يغنى عن الحياة شيأ بل لا يكون العلم علما الا اذا ظهرت آثاره في الخارج وانما تظهر آثاره بالعمل فالعمل العمل فان خير ما علمه الانسان هو العمل والا فأى فائدة من علم المؤمن فى دينه ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر اذا لم يصل فينتهى عن ذلك وعلمه في دنياه أن الزراعة مثلا من أسباب الحياة البشرية ولم يعمل بالزراعة مع علمه بها وبفنونها وهكذا يقال فى كل علم من علوم الدين والدنيا . ومن نظر منكم الى آثار العمل الصادرة عن العلم التي تفيضها على أرجاء المشرق الامم الاوربية الآن يحكم حكما جازما أن لا حياة لأمة ولا بقاء

لشعب بازاء تلك الامم المتمدنة ما لم يجارها في ميدان العمل مجاراة لا يعتري صاحبها الوهن ولا الكلل والاّ جرفت بتيار عاومها وجود الجاهلين وسحقت بقوّة عملها أجسام المستضعفين (وما ربك بظلام للعبيد) بعد اذ هداهم الى طريق العمل وحذرهم عاقبة الاهمال والكسل وأبان لهم عن سنن الوجود ودعاهم بها الي الاستبصار والاعتبار . فقال تعالى (فاعتبروا يا أولى الابصار) وقرع المعرضين منهم عن البحث في بدائع الكون ونظامه المصون فقال تعالي (وكأين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون)

﴿ الدرس الثالث والعشرون ﴾

﴿ التربية والاخلاق ﴾

(يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا)

كلما ترقي العلم في أمة كانت أقرب لتربية النفوس وأدني من تقويم الاخلاق وتهذيبها لا سيما اذا كان العلم مقرونا بالفضيلة وفضيلة العلم هي عمل الانسان بما يعلم والعالم يدرك بالضرورة سائر المنافع والمضار التي تتأتي عن الاعمال

فاذا كان علمه مقرونا بالفضيلة وهي العدل انتظمت سائر أعماله فعمل بالنافع واجتنب الضار والا فاذا لم يكن هناك فضيلة فالعلم ناقص فلا عمل لصاحبه ولا أخلاق . لهذا كانت التربية على الفضائل أس العلم وأفضل معارج الترقي اذ ان تفشي الرذائل بين أمة اذا لم يمنع من ترقيها فانه يكون علة لسرعة سقوطها لما فيه من غلبة الشهوات وتغالب النفوس على المنكرات (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) وهذه سنة ثابتة من سنن الوجود الاجتماعى يؤيدها قوله تعالي (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) وكأين من أمة بعد صيتها وتسامت صروح مجدها وعظم سلطانها دبت فيها سموم الرذائل فنخرت عظامها وأوهنت قوتها فهوت الي دركات الهوان وانمحى رسمها من عالم الانسان وانما تصاب الامم بهذا الداء وتهوى مع الاهواء اذا ساءت فيها التربية وفقد من عندها التعليم على أساس الفضيلة ولهذا كله نبهنا الله سبحانه وتعالي في القرآن الكريم فقال تعالي (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا) أي بأن نجتنب الرذائل ولا

نكتفى بتهذيب أنفسنا على اتباع الفضائل التي تقينا نار العذاب في الآخرة والاولى بل نشرك معنا بالتربية على هذه الفضائل أهلينا وأولادنا وقال تعالي (قل كل يعمل على شاكلته) أى على ما نشأ عليه وانطبع فيه . وبالطبع ان الناشيء على الفضائل عمله خير من الناشيء على الرذائل وانما يصدر العمل الخير عن النفس التي تربت على الفضائل وتهذبت على حب الكمالات وبالعكس وشاهدنا على ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام (مامن مولود الا يولد على الفطرة الخ) وقد مر معنا تتمة هذا الحديث في الدرس التاسع عشر حيث قلنا ان الفطرة الانسانية مستعدة من أصل الخلق للتلون بما يعرض عليها من الصور فتنطبع عليها أشد الصور التصاقاً بها ومروراً عليها فاذا كانت تلك الصور صوراً للفضائل نشأ الانسان فاضلا واذا كانت صوراً للرذائل كان رذيلا سافلا فالتربية هي مبدأ حياة للانسان اما سعيدة واما شقية .

اذا تقرر هذا فما لا ريب فيه عندى أن كلاً منكم يتمنى لنفسه الحياة السعيدة كما يتمناها لبنيه وذريته من بعده وانما تنال هذه السعادة بتهذيب النفس على الفضائل

٢٣-٥-٢٦ ٦ [illegible]

وتعويدها على اجتناب الرذائل وخيركم من عقل ذلك فبادر الي تهذيب نفسه وتقويم ما اعوج من خلقه ليكون قدوة صالحة لاهله ومربيا رشيداً لولده وسنداً قويا لوطنه . فقد حان لنا والله أن نرجع بالنفوس عن غيها ونعطي هذه الحياة من السعادة حقها فان الحياة قصيرة فما بالنا نقضيها في الشقاء والعبر كثيرة فختام هذا الاغضاء والمرض قتال فلم لانستعمل الدواء ربنا لا تزغ قلوبنا واجعلنا من عبادك الاخيار (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)

﴿ الدرس الرابع والعشرون ﴾

﴿ بيان وتتمة في الاخلاق ﴾

﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾

ذكرنا ان التربية هي مبدأ حياة للانسان اما سعيدة واما شقية وهو محمول على أن الانسان اذا نشأ على شيء من الافعال النفسية واستمر على تعاطيه فان كان ذلك الفعل شرا كان صاحبه شريراً وان كان خيرا كان صاحبه خيرا وأما اذا لم يستمر على تعاطيه وحاول تغييره بطول الممارسة على عكسه فمن الممكن أن يتغير

ومثاله من نشأ على رذيلة ثم أراد تركها فليضعها بحيث يبغضها ويعالج نفسه على تعويدها على الفضيلة وكلما تنبه فيه خلق الرذيلة بادر الى رغم نفسه على التخلق بالفضيلة وهكذا حتي يتمكن فيه هذا التخلق وينصرف عنه ذاك وقد زعم بعضهم أن الاخلاق الرذيلة لا تتغير بدعوي أن الانسان شرّير بالطبع وهو زعم فاسد يدحضه قوله تعالى اشارة الي النفس (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) وزعم آخرون أن السعادة والشقاء غير منوطين بأعمال الانسان لانه مسلوب الارادة كالحيوان واذا كتب الله عليه الشقاء أي قدرة استمر شقياً الي الازل وهو زعم فاسد أيضاً وافتراء على الله وبهتان اذ ان السعادة والشقاء اذا لم يناطا بعمل الانسان سقط التكليف وبطلت الحاجة الى الرسل والشرائع ومعاذ الله أن يكون ذلك كذلك فان الله سبحانه وتعالي يرسل رسله مبشرين ومنذرين مبشرين لمن قالوا (ربنا اننا سمعنا منادياً ينادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا) ومنذرين لمن قالوا (لوشاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتي ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون

الا الظنّ وان أنتم الا تخرصون)

وفضلا عن هذا فان الاعتقاد بسلب الارادة الى ذلك الحدّ استدراج للبشر في الشرور والمعاصي وهو ظلم تنزهت ذات الله سبحانه وتعالى عن مثله وهو القائل وقوله الحق (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) والقائل وهو أصدق من قال (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) والقائل سبحانه وتعالي (ان الله يأمر بالعدل والاحسان) والعدل كما علمتم مما مر أساس الفضائل في سائر أعمال الانسان النفسية والبدنية وهذه الفضائل هى منتهى السعادة الدنيوية والاخروية وقد كلفنا الله تعالى الي طلبها بالعمل فلو تحتم علي أحد الشقاء لما أمر بطلب السعادة ومن ثم لا ينبغي لاحدنا اذا ابتلى برذيلة ان يستدرج في سائر أنواع الرذائل ويقدم على كل المعاصي لاعتقاده بأن ذلك قدّر عليه ولا مفرّ له منه فان هذا كفر صريح واعتقاد مناف لحكمة الله تعالي في تدبير خلقه بل ينبغي عليه أن يعالج نفسه بالفضيلة ويصدها عن الرذيلة جهد الطاقة لئلا تسترسل في الشرور المفضية الى انهاك الاجسام وشديد الآلام في الدنيا والعذاب في الآخرة ولعذاب الآخرة أشد

وبالجملة فالاخلاق الفاضلة تكتسب بالممارسة وأحسنها ما كان من أصل الفطرة أى ما فطرت عليه النفس لتكون كالشجرة تنمو فروعها بنموّ الاصل وتؤتى أكلها كل حين والفضائل هى الاعمال النفسية والبدنية التى روعي فيها جانب العدل وهو ردّ العمل الى وسط بين طرفي الافراط والتفريط كالكرم فانه وسط بين رذيلتين الاسراف والبخل . والشجاعة فانها وسط بين رذيلتين الجنون والجبن هذا باعتبار أمهات الفضائل وأما باعتبار سائر الاخلاق الكريمة والفضائل فكل عمل بدنى قصد به الاسترزاق من طرقه المشروعة كالزراعة والتجارة مثلا فهو فضيلة وكل عمل نفسى كالصدق والأمانة وحسن المعاشرة وحب الناس وحب الوطن وحب العمل واسداء المعروف وغير ذلك من الأعمال المحمودة فهو من الاخلاق الكريمة ولنذكر لكم طرفا منها على وجه الاجمال لتقيسوا غيره عليه ونختار من ذلك حب الوطن وحب الناس لانهما من أركان الاجتماع القائم على دعائم التعاون والاتحاد

﴿ الدرس الخامس والعشرون ﴾

﴿ حب الوطن ﴾

(ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد)

الوطن طينة المرء التى نبت فيها أصله ونما فرعه ونشأة حياته التى تغذت بهوائه واستظلت بكنفه ودوائه ومقره الذى تتجاذبه عوامل الشفقة عليه والحنين اليه اذا شط به مزاره وبعدت عنه داره وكنه الذي يأوي اليه اذا نبت به البلاد ويتوسع فيه اذا ضاقت عليه الارباض ربما غادر المرء وطنه أحيانا لفاقة تصيبه أو ذل يراه واستقر فى موطن غيره يفيض عليه من النعم اشكالاً ومن العز هيبة وجلالا فيستكن فيه عمره يستدر خيره وميره فيبتنى لنفسه الدور ويأوي الي شاهقات القصور ويتمتع بأحسن ما يتمتع به النظر ويلذ للنفس شاكراً خروجه من ضيق العيش الى سعته ومن ذل الجوار الي عزته وبينما هو فى هذا النعيم المقيم يطرأ عليه خبر عن جائحة أصابت وطنه أو مصيبة حلت فيه أو عدوّ غلب عليه فتنزعج لذلك جوانحه وتتألم جوارحه ويتنغص عيشه وتنكمش

عضلاته وتنقبض أسارير وجهه وربما يغلب عليه الحنو فيجهر بالأوّاه وينادى وا أسفاه وا وطناه كل ذلك وهو لا يملك فيه شيئاً ولا ينتظر لنفسه منه خيراً . اذاً فما هذا الباعث الغريب والسر العجيب ؟ ما هذا المؤثر القاهر والاحساس الطاهر ؟ هذا حب الوطن نعم حب الوطن لان سلطانه فوق كل سلطان وأثره لا يمحي عن صفحات الجنان فكم بيعت فى سبيله النفوس بيع السماح وكم رخصت دونه أرواح وغلت أرواح بل كم رفع لرجال ذكراً كان خاملاً وشيد لاعمالهم أثرا ماتوا وظل باقياً . حب الوطن ولا نكران للحق أشرف خلق يتحلي به الانسان وأحسن شيمة ينطوى عليها الجنان وهو من أخلاق الانبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام وقد كان نبينا محمد صلي الله عليه وسلم بعد هجرته الي المدينة يحن الى وطنه مكة حنيناً كثيراً مع انه خرج منها وهو غير راض عن أهلها لمعاداتهم له وإيصالهم الاذية اليه حتى وعده الله سبحانه وتعالى بأن يريه اياها ويرده اليها وذلك فى قوله تعالي (ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الي معاد) ولما أنجز الله له وعده ودخلها عام الفتح ظافراً بمن كانوا أشد الناس عداوة له وهم قريش نادى

منادي الرسول من دخل البيت كان آمنا من دخل دار فلان كان آمنا أى لا يقتل قصد بهذا حقن الدماء وذلك حنانا منه صلى الله عليه وسلم بمواطنيه وعشيرته ولطفا بوطنه ومسقط رأسه ولهذا قال عليه الصلاة والسلام (حب الوطن من الايمان) والمؤمن يتحمل المصاعب والمشاق دون الايمان ويجتنب المهالك الاّ دون الايمان ويمسك عن الاسراف والتبذير الا في سبيل الايمان ويخرج عن نفسه وماله للايمان وبالجملة فحقوق الوطن على المؤمن هي حقوق الايمان مادام حب الوطن من الايمان . ولهذا جاء القرآن قارنا بين حق الدين وحق الوطن وذلك بقوله تعالي (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين) الآية

الوطن جامع ما تفرق وضام الشتيت من الانسان وانما تقوم المدنية حيث يكون الاجتماع وتستبحر الحضارة حيث تتألف القلوب على العمل ويمتدّ العمران حيث يجتمع الناس والانسان العامل في وطنه هو الامة لأن الامة هي العمل ومن لم يعمل فى وطنه فعدمه خير من حياته لانه يشغل فراغا

من الوجود أحق أن يشغله سواه وما أصيب وطن من أهله بمثل الكسل كما لم يعتز وطن من أهله بمثل العمل . مجد الوطن وسعادته ببنيه وبنوه بالعمل . فالعمل العمل وأنجح الأعمال عمل سبقه العزم وحفه الثبات وروعيت فيه تقوي الله والله لا يضيع أجر العاملين .

هؤلاء الغربيون عرفوا مزية العمل وأن به سعادة أوطانهم واستفحال مجدهم فانكفؤا على أطراف البسيط يلاقون المصاعب ويقاسون الاهوال ويجوبون الاقطار ويخترقون القفار لاكتشاف علمي ينفعون به وطنهم أو عمل سياسى يوسع أطراف ملكهم فاستبحر بذلك عمرانهم وغصت بما استفتحوه من كنوز الارض أوطانهم فملكوا رقاب البشر وأخذوا بنواصي الشعوب فرفعوا قدر الوطنية وأبانوا عن فضل العمل

هكذا تفعل الأمم الحية وبهذا تحيي النفوس الميتة وذلك هو نشاط الحياة الطيبة وثمرة العقل المطلق فارزقنا اللهم نوراً منه نهتدي به في ظلمة غشيت أوطاننا وأضلت أفكارنا فتركتنا في حيرة لا مناص منها الا بالعمل ثم العمل العمل

(من يعمل مثقال ذرة خيراً يره) . والله مسهل الأسباب

﴿ الدرس السادس والعشرون ﴾

﴿ حب الناس ﴾

﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾

ان منتهي ما توصف به أمة من مكارم الاخلاق الحب المتبادل على الوجه الذي وصف الله تعالي به المؤمنين بقوله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) هكذا كان المؤمنون يؤثر أحدهم الآخر على نفسه بالشيء مهما كان شديد الحاجة اليه وبلغ بهم هذا الحب المتبادل الي حدّ من الثقة بعضهم ببعض ان كان أحدهم ثقةً باخوانه المؤمنين لا يأتي امراً الا بمشورتهم عليه وطلب المناصحة فيه وكانوا خلطاء بالمال من عظم الثقة المتبادلة كما وصفهم بذلك الله تعالى بقوله جلّ من قائل (وأمرهم شوري بينهم ومما رزقناهم ينفقون) ان العقل مهما تصور من السودد لمثل هذه الامة فهو قليل بالنسبة لما كان عليه شأنها وجاء به قرآنها وما بلغت من الرفعة والمجد درجة حيرت عقول الباحثين في تواريخ الامم ودلت

على مقدار فضل التآلف والاتحاد الا بمثل تلك الاخلاق الكريمة والأعمال الشريفة الصادرة.عن قلوب ملؤها الايمان وعواطف كلها حنان.عن أناس كان أحب الي أحدهم أن يؤلف بين قلبين من أن يملك مابين قطرين. عن أناس وصفهم نبيهم صلى الله عليه وسلم بقوله

(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً) عن أناس بلغ من حب خليفتهم للمؤمنين وحرصه على راحة المسلمين ان كان اذا سمع بوقوع ضر بأحدهم يمرغ وجهه بالتراب ويقول واخجلتاه واعمراه أيصاب فلان بكذا وأنت غافل عن كشف الضر عنه ليت أمي لم تلدني

أيّ عاطفة لا تحرك وأي قلب لا ينتعش وأيّ قاس لا يلين لمثل هذا الاحساس الطاهر والحب المتمكن من أعماق قلوب المؤمنين . اللهم ارزقنا عودة على بدء ويسر لنا من أمرنا فرجا فقد ضاقت الصدور وتنافرت الانفس وتباغض المؤمنون وتخاذل المسلمون فحل بهم البلاء وتناوشتهم الاعداء وزالت ثقتهم من الصدور فتناكروا وبارت تجارة العهد عندهم فتنافروا ونزغ بينهم نازغ الفساد

فأرداهم. وغفلوا عن وصايا الله سبحانه وتعالى ونبيه فساءت عقباهم.
يقول لهم الله سبحانه وتعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم (وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم) فلا يتدبرون وفي البغضاء يتمادون. ويقول لهم رسوله عليه الصلاة والسلام (أحبكم الى أحاسنكم أخلاقا الموطؤن أكنافا الذين يألفون ويؤلفون) فلا يشعرون بمعنى هذا التأليف، ولا يعملون وعن العاقبة هم غافلون

اخواني اتظنون ان لكم حياة بعد اليوم الا بالتأليف ؟ أترون انها تقوم لكم قائمة الا بتبادل الحب ؟ هل تنشأ الثقة الا عن الحب ؟ أتقوم التجارة والصناعة والزراعة وكل أسباب المعاش الا بالثقة ؟

أيحيا الناس بدون المال ؟ هل يتيسر المال الا باصول المكاسب ؟ هل تنمو هذه الاصول الا بالثقة ؟ أتكون ثقة حيث لا يكون الحب ؟ لا والله : لا تكون فاحفظوا عنى هذه الشؤن واتقوا الله فيما أنتم فيه من اللهو واللعب تخوضون وألفوا بين قلوبكم وتعاونوا على أمر دنياكم واختاروا أقرب طريق لنجيح مسعاكم ومن يفعل ذلك فأولئك هم المفلحون

تفرقتم واجتمع الغربيون وتهاونتم ونشط الاوربيون فنزلوا
بقضهم وقضيضهم عليكم وتمكنوا بجماعاتهم من منفرديكم
وبشركاتهم من منافع أوطانكم وبنشاطهم من خمولكم
وبجدّهم من تقاعسكم فأسسوا بينكم المصانع واحتكروا
المنافع وفعلوا كل أفاعيل الحياة النشيطة التى ملأت فراغ
الوجود عبراً تمثل قدرة الانسان تمثيلا لا يدع لكم سبيلا
للاعتذار عن مجاراتهم الا بفقد الحياة الحساسة فيكم وموت
الشعور الطاهر منكم ومعاذالله أن يكون ذلك كذلك وأنتم أبناء
من بآثارهم اهتدى الغربيون وبهم عرفت مزايا الاجتماع وهم رافعو
منار الدول.ومؤسسو دعائم العمل. الذين كانت تتجافى جنوبهم
عن المضاجع لكلمة من داعى الحق اذادعاهم ومنادى حيّ على
العمل اذا ناداهم . وأى عمل للمؤمنين الآن أفضل من جمع
كلمتهم على العمل وتأليف قلوبهم على الحب ليعدّوا للغربيين
من القوة ما استطاعوا من نوع قوتهم ويقيموا من العلم
والعمل سداً دون اطماعهم قال تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم
من قوة) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من قاتل فليقاتل
كما يقاتل) انهم يقاتلوننا بقوة العلم والاختراع فهل أعددنا لهم

مثلها أو أدني منها ؛ لا والله بل نحن عالة عليهم مفتقرون في أدنى الضروريات اليهم . اخوانى لا تكونوا كمن جعلوا بأسهم بينهم فكانوا من الاخسرين أعمالا بل كونوا كما كان أسلافكم من المؤمنين رحماء بينهم أشداء على من عداهم والله مع المتقين

﴿ الدرس السابع والعشرون ﴾

﴿ خاتمة فيها تذكير ﴾

(وذكر فان الذكري تنفع المؤمنين)

أيتها الشبيبة الشرقية من أبناء الاخوة الاسلامية هذا كتاب أتلوه عليكم بالحق لعلكم تذكرون وما أنا باقل منكم حاجة الى التذكير وانما هو ضمير كضمائركم ووجدان كوجدانكم وشعور كشعوركم بعث فيّ نشاط الفكر لخدمة الامة بذرة مما يجب على كل فرد يشتغل لحياتها لا لحياته اذ أن حياة الفرد الواحد بالنسبة لحياة الأمة أقصر من أن يشتغل بها لحياته وانما هو يشتغل لحياة الامة وانما يكون المسلم مشتغلا لحياة الامة اذا استجاب لله وللرسول فيما يحيي

اخوانه المسلمين (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم) وأية حياة أشرف وأسمى من حياة أمة يدعوها كتابها الى حياة العقل والارادة والنشاط . الي حياة المجد والقوّة والعزة والسيادة . الي حياة العمل والجد . نعم الي هذه الحياة يدعو القرآن المؤمنين . ولأجلها تجافت جنوبهم عن المضاجع مئات من السنين . لا يرى أحدهم الاّ على متن جواد أو غارب بعير فدوّخوا الممالك ووطأوا بسنابك خيولهم معظم عواصم الارض فاخترقوا جدار الصين من الشرق وقطعوا جبال البرنات في الغرب وما استقروا في مكان الا مصروا فيه الأمصار وشيدوا للعلوم دورا ورفعوا للدين منارا وأقاموا للمجد والسيادة دعائم وأحيوا للسياسة معالم فمهدوا للاسلام طريق الانتشار فبلغ الهند والصين شرقا واخترق المحيط الغربي غربا ووصل الى شطوط المنجمد الشمالي مما يلي سبيريا شمالا وعم جزائر المحيط الجنوبي جنوبا

أين تلك العصابة المؤمنة وما الذي ذهب بهذه الحياة النشيطة ؟ أليس هو فساد تطرق بعد الي تربية أفكار الامة من خلف أتي بعد تلك العصابة فأخلد الى الراحة واستغرق

في الشهوات فاعتذر عن عدم مجاراته لتلك العـ ... يدها بثروته العظيمة
المؤمنين بأن الزهد عن العمل من الدين والدين ... تعالى عنه الذي
ليس للمؤمن أن يسعد بعمله أو يشق أو يشتغل في ... المسلمين متمطيا
الاخرى وانه مسلوب[1] الارادة فلا يسمي مسوق بالتي ... بجيوش
كالبهيمة العجماء تذهب بفطرتها الي المرعى [2]

---

(١) هذا اعتقاد فرقة تسمى الجبرية ولكن محاهم الله وكثيراً من أهل البدع الضالة فى الاسلام (٢) مر في الدروس الماضية من الادلة القرآنية على ابطال هذه المزاعم ما فيه الكفاية وأما مسئلة القضاء فهي فى الحقيقة اعتقاد فاش بين عامة الامة على وجه يخالف ما كان يعتقده السلف وخاصة الخلف أيضاً لقصر عقولهم عن تناول مغزي القضاء الذي هو عند أئمة الاشعرية والماتريدية من أهل السنة تعلق الارادة الالهية أو العلم الالهي بخلق الاشياء على ما هي عليه من الازل واليك ماقاله الاشعرية فى القضاء

ارادة الله مع التعلق * فى أزل قضاؤه فحقق

والقدر الايجاد للاشيا على * وفق مراد الله جل وعلا

وليس فى هـذا ما يتصوره العامة من وجوب الاعتقاد بسلب الارادة الانسانية بل الانسان ذو ارادة واختيار وهو الكسب الذي يسميه أئمة الدين الجزء الاختياري وانما المغالاة فى العقائد عند العامة من أهل كل دين كثيراً ما تؤثر على نفوسهم آثاراً تظهر على أعمالهم البدنية بصفة لا تنطبق علي أصل العقيدة ومن هذا القبيل مغالاة كثير

اخواني ان أخوف ما يكون بهتان على دينك وافتراء على انحرافها عن دين أنزل عليها بالحق منين الذين هم أرسخ علما وأعظم التي سنها للخلق وهذا ما قضين . واهتداء بالكتاب المبين . ومع من قبل اذ استولى منهم مثل عثمان رضى الله تعالى عنه الذي صار مجدها

من عامة المسلمين بعقيدة القضاء التي اتهمنا الفرنجة بسببها بموت الارادة وفقد الاحساس وقالوا اننا أصبحنا معرضين بهذا الاعتقاد لقبول كل بلاء ينزل بنا ولو مهما كان فيه من ضعة وذل وهوان وان أمة هذا اعتقادها لا تؤمل لها حياة بين الاحياء بحكم السنة الطبيعية سنة بقاء الانسب التى يفضى بها تنازع البقاء ولو أنصف الافرنج وتعمقوا قليلا فى تاريخ الاسلام وما فعله المسلمون من الانقلاب السياسي والعلمي فى العالم أجمع لظهر لهم أن الاسلام بريء من هذه الوصمة بعد ما ظهر من أهله من آثار العمل فى الوجود مالم يظهر أثره فى أمة من الامم من قبل . وانما هناك خطأ فى فهم القضاء أوجب التحريف فى هذه العقيدة عند العامة ولا بد فى اصلاح هذا الخطأ من نهوض أئمة المسلمين الى تدارك الامر قبل أن يتحقق ظن الاوربيين فى بقية هذه الامة كما تحقق فى قسم عظيم منها خنع للاستعباد واستنام لحكم الاجنبي فارتكس في أمواج الحيرة وأصبح هدفا للاضمحلال لا سمح الله . ولا شك ان علماء هذه الامة هم المسؤلون عن هذا الحيف المحيق بالمسلمين الذين أقعدتهم الاوهام عن مجاراة الامم الحية ومكافحة الحوادث بسلاح الجد والعمل والله بالعاقبة عليم

خليفة ولم يدع الاشتغال بأنه يكون يوما بثروته العظيمة من الزاهدين ومثل خالد بن رضي الله تعالى عنه الذي لم يفتأ منذ دخل في الاسلام عاملا في المسلمين ممتطيا صهوة جواده آناء الليل وأطراف النهار يحوش المؤمنين القفار ويفتح لهم الممالك ويدوّخ الامصار ولم يضطجع على فراش الراحة الا أيام مرضه التي قضاها وهو يتأوه من عدم العمل تأوه الولهان ويقول أعلى هذا الفراش أموت لا عاش الجبان لا عاش الجبان

لا جرم أن هذه العصابة الطاهرة التي رفعت مجد الاسلام وشيدت بعملها المتواصل وسعيها الحثيث دعائم الدول واستولت على كنوز الارض وأخذت بأعنة التجارة والصناعة والعلم والمعارف والرئاسة والسياسة بعد أن كانت في بداوتها بمعزل عن هذا كله لعصابة عرفت حقيقة الاسلام وما يدعو اليه فأخذت نصيبها من الدنيا والدين وكانت بالسعادة القصوى من الفائزين لاهتدائها بنور الكتاب المبين الذى أنزل فيه على خاتم النبيين عليه افضل الصلاة والتسليم (وأنزلنا اليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدي ورحمة)

اخواني ان أخوف ما يكون على الامم من الهلاك انحرافها عن دين أنزل عليها بالحق واعراضها عن السنن النافعة التي سنها للخلق وهذا ما قضي على قوم نوح وابراهيم وموسى من قبل اذ استعملوا الاديان آلة لغير ما وضعت له فذبحتهم بحدها فلا تكونوا كأولئك الغابرين (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) انتهى الكتاب

